

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الخامس والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١ م

اهداءات ٢٠٠٣
أسرة /عبد الرزاق باشا السنهورى
القاهرة



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثالث

الحزب الخامس والخمسون

الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٩١

« سورة المجادلة »

مدنية وآياتها ثنتان وعشرون

أهم مقاصدها :

بيان حكم ظهار الرجل من امرأته ، بأن يقول لها - مثلًا - : أنت علىّ كظهر أمى ، وأن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم - أى : لعنوا مثلهم - وأن لهم فى الآخرة عذابًا مهينًا ، وأن الله تعالى يعلم جميع ما فى السموات والأرض ، ومن ذلك أنه يعلم السر والنجوى ، وبيان مصير الذين يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ ، وأن على المؤمنين إذا قيل لهم : تفسحوا فى المجالس أن يتفسحوا ، وأن الذين يتولون قومًا معادين للإسلام أعدَّ الله لهم عذابًا مهينًا ، وأن الله تعالى قضى بأن يَغْلِب هو ورسله جميع أعداء الدين ، وأن من يتركون مودة من يحادون الله ورسوله - ولو كانوا أقاربهم - أولئك كتب الله فى قلوبهم الإيمـان وأيدهم بروح منه ، وأنهم سيدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار : (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَـٰئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

اسماء هذه السورة :

تسمى المجادلة ، بكسر الدال وفتحها ، والكسر أشهر ، وتسمى أيضًا سورة (قد سمع) وسورة الظهار .

مناسبتها لما قبلها :

ختمت السورة السابقة بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من ذلك حيث سمع الله شكوى هذه المرأة ، وأزال شكوى كربتها ، بما بينه من حكم الظهار ، وجاء فى مطلع السورة السابقة ذكر صفات الله الجليلة ، ومنها الظاهر والباطن ، وأنه سبحانه « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ » ، وافتتح هذه السورة بذكر أنه تعالى سمع قـول المجادلة التى شكت إليه تعالى ، إلى غير ذلك من المناسبات .

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾)

المفردات :

(تَحَاوُرَكُمَا) : تراجعكما فى الكلام من حار إذا رجع ، ويجوز أن يكون المراد به الكلام المردَّد السمع للمسموعات .

التفسير

١ -(قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) :

نزلت هذه الآية والآيات بعدها فى امرأة من الأنصار اسمها خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجى ، وقيل غير ذلك ، ولكن الأكثرين على أنها هى خولة بنت ثعلبة المذكورة ، وأن زوجها هو أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت ، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه ، فدخل عليها يومًا فراجعته بشىء فغضب فقال : أنت علىَّ كظهر أمى ، وكان هذا أول ظهار فى الإسلام .

وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه ، فندم أوس من ساعته ، فدعاها فأبت وقالت : والذى نفسى بيده : لاتصل إلىَّ وقد قلت ماقلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن أوسًا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىَّ ، فلما خلا سنى ونثرت بطنى - أى كثر ولدى - جعلنى عليه كأمه وتركنى إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة يارسول الله تُنعِشُنِى بها وإيَّاه فحدثنى بها ، فقال

ـ عليه الصلاة والسلام ـ : والله ماأمرت فى شأنك بشىء حتى الآن ـ وفى رواية : ماأراك إلّا قد حرُمْتِ عليه ـ فقالت : ما ذكر طلاقًا ، وجادلت رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرارًا ، ثم قالت : اللّهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى ومايشق علىّ من فراقه ..

وفى رواية قالت : أشكو إلى الله ـ تعالى ـ فاقتى وشدة حالى ؛ وأن لى صبية صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك ، اللّهم فأنزل على لسان نبيك ، ومابرحت حتى نزل القرآن فيها ، فقال ﷺ : ياخولة أبْشِرِى . قالت : خيرًا . فقرأ عليها ـ عليه الصلاة والسلام ـ (قَدْ سَمِعَ ...) وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يكرمها إذا دخلت عليه ويقول : قد سمع الله تعالى لها .

روى ابن أبى حاتم والبيهقى فى الأسماء والصفات : أنها رأته ـ رضى الله عنه ـ وهو يسير مع الناس ، فاستوقفته فوقف لها ودنا منها وأصغى إليها ووضع يده على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين . حبست رجال قريش على هذه العجوز قال : ويحك . أتدرى مَنْ هذه ؟ قال : لا ، قال : هذه امرأة سمع الله لشكواها من فوق سبع سمٰوات . هذه خولة بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف حتى أتى الليل ما انصرفت حتى تقضى حاجتها[1] .

وفى رواية أخرى : أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ والناس معه على حمار ، فاستوقفته طويلًا ووعظته وقالت : ياعمر قد كنت تدعى عُميرًا ، ثم قيل لك : عمر ، ثم قيل لك : ياأمير المؤمنين ، فاتق الله ياعمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب ـ وهو واقف يسمع كلامها ـ فقيل له : ياأمير المؤمنين أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟ فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره ، لازلت إلّا للصلاة المكتوبة ، أتدرون مَن هذه العجوز ؟ هى خولة بنت ثعلبة ، سمع الله قولها من فوق سبع سمٰوات ، أيسمع رب العالمين قولها ولايسمعه عمر[2] .

---

(١) حكاه الآلوسى .

(٢) حكاه القرطبى .

وروى النسائى وابن ماجه والبخارى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت بعد أن نزلت الآية (قَدْ سَمِعَ) : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبى ﷺ وأنا فى ناحية من البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله تعالى :(قَدْ سَمِعَ ...) الآيات[1] .

والسماع مجاز ، أو كناية عن القبول . والسمع والبصر من صفات الله تعالى ، وهما غير صفة العلم ، فكل المسموعات والمبصرات يعلمه الله تعالى .

وبعض العلماء قال : إنهما كناية عن العلم ، وهذا خطأ لمـا فيه من محو صفتى السمع والبصر وهما من صفاته وأسمائه تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » ، نقل القرطبى عن الحاكم أبى عبد الله قوله : والسمع والبصر من صفات الله كالعلم والقدرة والحياة والإرادة فهما من صفات الذات . لم يزل الله سبحانه وتعالى متصفًا بهما .

والمعنى الإجمالى للآية : قد سمع الله ـ تعالى ـ قول خولة بنت ثعلبة التى تُسائلك فى حكم ظهار زوجها منها بقوله لها : أنت علىَّ كظهر أمى ، وتشتكى إلى الله ـ تعالى ـ لينزل فى شأنها حكمًا غير الطلاق الذى جعلوه فى الجاهلية حكمًا للظهار ، وكانت هذه الشكوى إلى الله ـ تعالى ـ بعد أن أفهمها الرسول ﷺ أنه ـ سبحانه ـ لم ينزل فى شأنه حكمًا ، والله يسمع تحاورها معك ـ أيها الرسول ـ وترديدها للشكوى ، إن الله عظيم السمع للمسموعات وإن كانت همسًا ، عظيم البصر للمرئيات وإن كانت دقيقة ، فلهذا لم يخف عليه ـ سبحانه ـ ما جرى بينك وبينها من الحوار .

---

(١) حكاه الآلوسى .

(ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢)

المفردات :

(يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم) : يقول الرجل منكم لامرأته : أنت علىَّ كظهر أمى أو ما فى معناه ، وسيأتى بيانه .

(إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ) : ما أمهاتهم .

(مُنكَرًا) : يستنكره الشرع والعقل .

(وَزُورًا) : وكذبًا منحرفًا عن الحق .

التفسير

٢ - (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ) :

شروع فى بيان الظهار وحكمه المترتب عليه شرعًا ، والظهار : مصدر ظَاهَرَ ، وحقيقة الظهار - كما قال القرطبى -: تشبيه ظهر بظهر ، والموجب للحكم منه تشبيه ظهرِ محلَّلٍ بظهر مُحَرَّمٍ ، وقد أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته : أنت علىَّ كظهر أمى فهو مظاهر ، أما لو قال لها : أنت علىَّ كظهر ابنتى أو أختى أو غيرهما من المحارم فإنه يكون مظاهرًا عند أكثر الفقهاء ، ومنهم من قال : لا ظهار إلَّا بالتشبيه بظهر الأُم ، وهو مذهب قتادة والشعبى ؛ لأنه هو الذى قام عليه الحكم ، والأول هو المعتمد ؛ لأن تشبيه المظاهِر ظهر امرأته بظهر أمه ، هو تشبيه بظهر محرم ، فليكن مثله فى الحكم التشبيه بظهور كل المحارم .

قال القرطبي فى المسألة الثالثة : وإنما ذكر الله الظهر كناية عن البطن وسترا .

وفى الظهار صريحه وكنايته آراء شتى ، فارجع إليها إن شئت فى موسوعات التفسير أو الفقه .

والظهار يكون فى كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها ، على أن يكون صادرًا من كل زوج يجوز طلاقه .

والمعنى الإجمالى للآية : المؤمنون الذين يقولون لنسائهم : أنت علىَّ كظهر أمى مخطئون[١] ما نساؤهم أمهاتهم على الحقيقة ، فهو كذب لا يليق بالمؤمنين أن يقولوه ، ما أمهاتهم على الحقيقة إلَّا اللَّائى ولَدْنَهم ، فلا تشبه نساؤهم بهن ، وإنما يشبه بهن المرضعات[٢] وزوجات الرسول - كما جاء فى الكتاب والسنة - وإن هؤلاء المظاهرين ليقولون بهذا التشبيه منكرًا فى الشرع والعقل والطبع ، وزورًا - أى : وكذبًا باطلًا - وإن الله لعظيم العفو والغفران للتائبين وغيرهم فإنه تعالى واسع المغفرة .

ويفهم من الآية أنه حرام ، بل قال بعضهم : إنه من الكبائر ، لأنه إقدام على تبديل حكم الله بغير إذنه ، ولهذا أوجب الله فيه الكفارة العظمى .

(وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾)

(١) على أن خبر المبتدأ محذوف ، ويصح أن تكون الجملة التى بعده خبره .

(٢) أى : فى الحرمة والكرامة ، أما الزوجات فأبعد شىء عن الأمومة ، فلا يشبهن بهن .

المفـــردات :

(يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ) قال الفراء : اللام فى قوله : (لِمَا قَالُواْ) بمعنى عَنْ ، أى : يرجعون عمّا قالوه ، ويريدون وطء نسائهم بعد أن حرّموه على أنفسهم .

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ) : فعليه إعتاق رقبة .

(مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا) أى : من قبل أن يجامعها .

(ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ) أى : ذلك التغليظ فى الكفارة لكى تعملوا بشرائع الله التى شرعها لكم ، فلاتعودوا إلى الظهار الذى هو من شرائع الجاهلية .

(وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ) أى : أحكامه التى حددها فلايحل تركها .

التفسـيـر

٣ ـ (وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

بين الله فى الآية السابقة الحكم الإجمالى للظهار ، وهو أنه منكر وزور ، وجاءت هذه الآية ومابعدها بيانًا لحكمه تفصيلًا شاملًا لظهار أوس زوج خولة التى حاورت الرسول ﷺ بشأنه ، ولظهار غيره من الأزواج .

وقد بينت الآية أن المظاهر الذى يعود لما قال فى امرأته ، فعليه تحرير رقبة من قبل أن يمسها بالوطء ، والعود لِمَا قاله ؛ رجوعه عن تحريمها على نفسه كلُّه ، إلى الرغبة فى وطئها الذى حرّمه على نفسه ، فاللّام فيه بمعنى : عن ، كما قاله الفراء ، أى : يعود ويرجع عن تحريمها إلى الرغبة فى وطئها .

وقد جاء فى الآية أنه لايحل له وطؤها حتى يكفر عن ظهاره بتحرير رقبة ، أى : إعتاق رقيق كامل الرق ؛ ليصبح بهذا الإعتاق حرًّا بعد عبوديته ، يتصرف تصرف الأحرار ، لاتصرف العبيد ، ولا بد فى هذا الرقيق أن يكون سليمًا من العيوب ـ ذكرًا كان أو أنثى ـ ويجب أن يكون مسلمًا عند مالك والشافعى كما فى كفارة القتل ، وعند أبى حنيفة :

يجزئ الكافر ومن فيه شائبة رقٍّ كالمكاتب ، فإن أعتق نصفى عبدين فلا يجزئ عند المالكية والحنفية ، وقال الشافعى : يجزئ ؛ لأن نصفى العبدين فى معنى العبد الواحد ، ولكل دليله .

وقد أوجب الله فى هذه الآية أن يكون الإعتاق قبل أن يجامعها ، فإن جامعها قبل التكفير أَثِمَ وعَصَى ولا يسقط عنه التكفير ، بل يأتى به قضاء كما لو أخر الصلاة عن وقتها ، سواء أكانت الكفارة بالعتق أم بالصوم أم بالإطعام .

أما مسُّها بغير الوطء قبل الكفارة كالقُبْلَة والمباشرة بغير وطء فلا يحرم عند أكثر العلماء ، وقيل : ذلك وما أشبههن من أنواع المسيس حرام قبل أن يكفر ، وبه قال مالك وهو أحد قولين عند الشافعى ، وهو الظاهر ؛ لأن مثل ذلك يؤدى إلى الوطء قبل التكفير[1] .

والمعنى الإجمالى للآية : والرجال الذين يظاهرون من نسائهم ثم يرجعون عما قالوه من تحريم وطئهن كالأُمهات إلى الرغبة فى وطئهن ، فعلى كل واحد منهم إعتاق عبد أو أمة إعتاقًا كاملًا قبل أن يجامع زوجته أو يستمتع بها عند بعضهم ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير ، فيعفو عمن كفَّر قبل المسيس ، ويعاقب من مسَّ قبل الكفارة .

٤ - (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أفادت هذه الآية الكريمة أن الكفارة مرتبة ، فلا ينتقل إلى الصوم من قدر على العتق ، ولا إلى الإطعام من قدر على الصيام ، وتفصيل ذلك ما يلى :

١ - من لم يجد الرقبة ولا ثمنها ، أو كان مالكًا لها لكنه شديد الحاجة إليها لخدمته ، أو كان مالكًا لثمنها إلَّا أنه يحتاج إليه لنفقته ، أو كان له مسكن وليس له غيره حتى يبيعه

---

(١) فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، واعلم أنه لا ظهار للمرأة من الرجل - كما قاله الشافعى ، وقال الأوزاعى : هو يمين تكفرها ، وقال الزهرى : لا يحول قولها هذا بينها وبين زوجها - انظر المسألة الثانية عشرة من القرطبى .

ويشترى الرقبة بثمنه ، فله أن يصوم شهرين متتابعين عند الشافعى ، وقال أبو حنيفة : لا يصوم وعليه عتق ولو كان محتاجًا إلى ذلك .

٢ ــ الكفارة الثانية للظهار أن يصوم شهرين إن عجز عن الإعتاق بأى وجه مما تقدم ويجب أن يكون صيامهما متتابعًا ، فإن أفطر فى أثنائهما لغير عذر استأنفهما ، فإن كان الفطر لعذر كسفر ومرض ، فقيل : يبنى على ما صامه ــ وهو الصحيح الذى قال به أكثر الأئمة ، وقال أبو حنيفة : يبتدئ . وهو أحد رأيى الشافعية .

٣ ــ إذا ابتدأ الصيام ثم وجد الرقبة ، أتَمَّ الصيام وأجزأه عند مالك والشافعى : وقال أبو حنيفة وأصحابه : يقطع الصيام ويعتق الرقبة .

٤ ــ إذا وطئ المظاهر نهارًا فى أثناء صومه بطل التتابع وعليه أن يستأنف ، فإن كان ليلًا فلا يستأنف؛ لأن الليل ليس محلاً للصوم ، وقال مالك وأبو حنيفة : يبطل وعليه الاستئناف ؛ لأنه وطئ قبل الكفارة لقوله تعالى : (مِن قَبْلِ أن يَتَمَآسَّا) .

٥ ــ من لم يقدر على الصيام وجب عليه إطعام ستين مسكينًا إطعامًا مُشبعاً ، وذهب الشافعى وغيره إلى أنه مد واحد لكل مسكين .

وفى الظهار أحكام فرعية كثيرة ، فمن أرادها فليرجع إلى موسوعات التفسير أو الفقه .

والمعنى الإجمالى للآية : فمن ظاهر من امرأته ولم يجد رقيقًا ليعتقه ؛ لأنه قد لا توجد عبيد أو كانت موجودة ولا قدرة له على ثمن العبد ، أو له قدرة على ثمنه لكنه يحتاج إليه لخدمته أو نحوها مما سبق بيانه ــ فمن ظاهر من امرأته ولم يجد رقيقًا يعتقه على النحو السابق فعليه قبل أن يمس امرأته أن يصوم ستين يومًا متتابعة ، فإن أفطر فى بعضها لغير عذر استأنف ، فإن كان لا يقدر على الصيام شهرين متتابعين ، فعليه أن يطعم ستين مسكينًا إطعامًا مشبعًا ، ذلك البيان المفصل لكى تؤمنوا بالله ورسوله بتنفيذه ، وتلك الأحكام هى حدود الله الفاصلة بين الحق والباطل ، فالزموها وقفوا عندها ، وللكافرين الذين يتعدونها ولا يعملون بها عذابٌ شديد الإيلام .

وإطلاق لفظ الكافرين على من يتعدون حدود الله لزجرهم والتغليظ عليهم ، ونظيره قوله – تعالى –: « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ »[1] .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾)

المفردات :

(يُحَادُّونَ) : يعادون ويشاقون .

(كُبِتُوا) : أهلكوا أو أخزوا .

(عَذَابٌ مُّهِينٌ) : مذهب ومزيل لعزهم وكبرهم .

التفسير

٥ –(إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ) :

لَمَّا ذكر الله المؤمنين الواقفين عند حدوده ، عقبهم بذكر المحادين المخالفين لها ، قال القرطبي : والمحادة : المعاداة والمخالفة فى الحد ، وقال الزجاج : المحادة : أن تكون فى حد يخالف حد صاحبك ، وأصلها الممانعة ، ومنه الحديد ، ومنه الحداد للبواب . اهـ .

(١) سورة آل عمران من الآية ٩٧

وقال الآلوسى نقلًا عن ناصر الدين البيضاوى فى تفسير (يُحَآدُّونَ اللهَ) يضعون ، أو يختارون حدودًا غير حدود الله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ ، ثم قال نقلًا عن شيخ الإسلام سعد الله جلبي : وعلى هذا ففيه وعيد عظيم لمن وضعوا أمورًا خلاف ماحدده الشرع وسموها قانونًا ، والله ـ تعالى ـ المستعان على ما تصفون . انتهى بتصرف يسير .

ثم قال الآلوسى : إنه لا شبهة فى أنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق الآراء من أهل الحل والعقد ، على وجه يحسن به الانتظام ، ويصلح أمر الخاص والعام ، ومنها تعيين مراتب التأديب والزجر على معاصٍ وجنايات لم ينص الشارع فيها على حد معين ، بل فوض الأمر فى ذلك لرأى الإمام ، فليس ذلك من المحادة لله ـ تعالى ـ ورسوله ﷺ فى شىء ، بل فيه استيفاء حقه ـ تعالى ـ على أتم وجه ، لِمَا فيه من الزجر عن المعاصى وهو أمر مهم للشارع ـ عليه الصلاة والسلام ـ ثم قال : وفى كتاب الخراج للإمام أبى يوسف ـ عليه الرحمة ـ وإشارة إلى ذلك ، ولا يعكر على ذلك ونحوه قوله ـ تعالى ـ : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » ، لأن المراد كماله من حيث تضمنه ما يدل على حكم الله ـ تعالى ـ خصوصًا أو عمومًا ، ويرشد إلى هذا عدم النكير على أحد من المجتهدين ، إذا قال بشىء لم يكن منصوصًا عليه بخصوصه ومن ذلك ما ثبت بالقياس بأقسامه ، نعم القانون الذى يكون وراء ذلك ، بأن كان مصادمًا لما نطقت به الشريعة الغراء ، زائغًا عن سنن المحجة البيضاء ، فيه ما فيه كما لا يخفى على العارف ... إلخ .

والآية عند الأكثرين أشارت إلى ما كان يوم الخندق ، ولكن حكمها عام ، يتناول أهل الخندق وكل من يعارض أحكام الله ـ تعالى ـ ويعاديها ، ويؤثر عليها قوانين من وضع البشر مخالفة للنصوص الشرعية ، ما لم تكن تلك القوانين فيما لم يرد فيه حكم الله تعالى ، ويدل لجواز وضع القوانين فيما لم تنص عليه الشريعة أنه ﷺ بعث معاذ بن جبل الأنصارى الخزرجى إلى اليمن قاضيًا ومفقهًا وأميرًا وجامعًا للزكاة ، فقال له : « كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ » قال : بما فى كتاب الله ، قال : « فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ » قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال : « فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟ » قال : أجتهد رأيى لا آلو ـ

أى : لا أقصر ، قال : فضرب رسول الله ﷺ صدرى ثم قال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لِمَا يرضى رسول الله » رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة .

والمعنى الإجمالى للآية : إن الذين يعادون الله فلا يعملون بحدوده وأحكامه ، وبما جاء به رسوله ﷺ ويرفضونها أو يضعون أحكامًا مخالفة لنصوص الشريعة تفضيلًا لها عليها ، أخزاهم الله ولعنهم كما فعل بالذين من قبلهم ، وهم الذين عارضوا رسل الله السابقين ورفضوا حدود الله وشرائعه التى أنزلها إليهم ، وقد أنزلنا آيات واضحاتِ الحجة بيناتِ المحجة ، وللكافرين بتلك الآيات أو بكل مايجب الإيمان به عذابٌ يهينهم ويذلهم .

٦ - ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ :

أى : اذكر لهم أيها الرسول تعظيمًا ليوم الحساب - اذكر لهم - يوم يبعثهم الله جميعًا رجالًا ونساء ، ويحشرهم إلى ساحة القيامة ، فينبئهم بما عملوا فى الدنيا من الآثام والمعاصى ، وفى جملتها معاداة شريعة الله - ينبئهم بما عملوه - بيانًا أو تصويرًا لها بالصورة اللائقة بها على رءوس الأشهاد تخجيلًا وتشهيرًا بحالهم ، زيادة فى خزيهم ونكالهم أحصى الله ما عملوه عددًا ولم يفته منه شىء علمًا وكتابة فى صحف أعمالهم ونسوه لكثرته وتهاونهم به حتى ذكرهم به الله ؛ ليكون أبلغ فى الحجة عليهم ، والله على كل شىء مطلع وناظر ، فلا تخفى عليه من أعمالهم خافية .

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ۖ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾)

المفردات :

(نَجْوَىٰ) النجوى : التناجي ، وهو المسارّة .

(لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ) : هلّا يعذبنا الله بسبب ما نقول .

(حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ) : كافيهم جهنم عقابًا لهم فى الآخرة .

التفسير

٧ ـ (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ[1] ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) :

(١) نجوى فاعل (يكون) التامة ، و(من) زائدة ، و(إلا) أداة استثناء ملغاة لا عمل لها ، وجملة (هو رابعهم) استثناء من أعم الأحوال .

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى قوم من المنافقين واليهود كانوا يتناجون بما يسوء المسلمين فأعلم الله أنه لا يخفى عليه ذلك ، وقال مجاهد : نزلت فى اليهود ، والنجوى : مصدر بمعنى التناجى ، وقال القرطبى نقلا عن غيره : كل سِرَار نجوى ، وقيل : النجوى يكون من خلوة ثلاثة يُسِرُّون شيئًا يتناجون به ، والسِّرار ما يكون بين اثنين [1] .

والمعنى : ألم تعلم أيها الرسول أن الله تعالى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، من عناصرهما وما استقر فيهما ، حتى المناجاة - أى : المسارَّة - فإنه يعلمها ويعلم المتسارِّين بها ، ما يكون من مسارة بين ثلاثة إلَّا الله رابعهم بعلمه لا بحلوله معهم فى مكانهم ، فإنه - تعالى - لا يحل فى مكان ولا يمر عليه زمان ، وكل من الزمان والمكان من خلقه - تعالى - وما يكون من مسارَّة بين خمسة إلَّا الله سادسهم بعلمه ، ولا أقل من ذلك كالاثنين والأربعة ، ولا أكثر منه كالستة وما فوقها ، إلَّا هو معهم بعلمه ، فلا يخفى على الله من نجواهم شىء حيثما كانوا فى ظاهر الأرض أو باطنها ، فإن علمه - تعالى - لا يتفاوت باختلاف الأماكن قربًا وبعدًا ، ثم يخبرهم بما عملوا يوم القيامة تشهيرًا بما عملوا من هذه المسارَّة الخبيثة وسواها ، وإظهارا لموجب عذابهم ، وأن الله مطلع على كل شىء فلا تخفى عليه خافية ، وهذه الآية تؤكد ما جاء قبلها من أنه - تعالى - يعلم الذين يحادون الله ورسوله ، ويضعون أحكامًا مخالفة لشرعه ، وأنه - تعالى - سوف ينبئهم بما عملوه ، ويجزيهم عليه ، وخلاصة الآية أنه - تعالى - محيطٌ بكل كلام ، ومن ذلك أنه سمع مجادلة المرأة التى ظاهر منها زوجها ، فإن قلت : لماذا اقتصر الله على الثلاثة والخمسة ؟ فالجواب كما قال الفراء : المعنى غير مصمود [2] والعدد غير مقصود ؛ لأنه - تعالى - إنما قصد - وهو أعلم - أنه مع كل عدد قل أو كثر ، يعلم ما يقولون سرًّا وجهرًا ولا تخفى عليه خافية ، فمن أجل ذلك اكتفى بذكر بعض العدد دون بعض [3] .

---

(١) وقال الراغب : النجوى أصله مصدر كما هنا ، وقد يوصف به فيقال : هو نجوى وهم نجوى . قال - تعالى - : « وإذ هم نجوى » وعليه يحتمل أن يكون من باب زيد عدل : اه ، يريد أنه على المبالغة كزيد عدل .

(٢) أى : غير مقصود. (٣) نقله القرطبى .

٨ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ) :

صح من رواية البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - أن أناسًا من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : السّام عليك يا أبا القاسم ، فقال ﷺ : وعليكم . قالت عائشة : وقلت : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم ، وفى رواية : عليكم السام والذام واللعنة ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : ياعائشة : إن الله لايحب الفاحش ولا المتفحش ، فقلت : ألا تسمعهم يقولون : السام ، فقال : ياعائشة أو ما سمعت أقول : وعليكم ؟ فأنزل الله - تعالى - (وَإِذَا جَاءُوكَ ...) الآية .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : إن الآية فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون دون المؤمنين ، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم ، يوهمونهم عن أقاربهم أنهم أصابهم شر ، فلايزالون كذلك حتى تقدم أقاربهم ، فلما كثر ذلك شكا المؤمنون إلى الرسول ﷺ فنهاهم أن يتناجوا دون المؤمنين ، فعادوا لمثل ذلك فنزلت الآية ، فمن حديث عائشة عرفنا أن النجوى كانت من اليهود ، وأن الآية نزلت بسبب سوء تحيتهم للنبى ﷺ ، ومن كلام ابن عباس عرفنا أن المنافقين كانوا يتناجون بالصورة التى رواها ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان اليهود حلفاءهم قبل الإسلام ، وعنهم أخذوا بغض الإسلام والمسلمين .

ومعنى الآية : ألم[1] تعلم - أيها الرسول - مافعله أولئك الذين نهيتهم عن المسارة فيما بينهم فى شأنك وشأن المؤمنين ، ثم يعودون لما نهوا عنه ويتسارون بالإثم والعدوان عليكم ، وبمعصية الرسول ﷺ حيث لم ينتهوا عمّا نهوا عنه ، وإذا جاءوك لأمر من الأمور حيوك بما لم يحيك به الله ، فقالوا : السام عليك - والسام : الموت - وقد ثبت عن قتادة عن أنس أن يهوديًا أتى على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه فقال : السام عليكم - فردّ عليه النبى ﷺ

(١) الهمزة للتعجب .

وقال : « أتدرون ماقال هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : كذا رُدُّوه عليَّ ، فَرَدُّوه قال : « قلتَ السام عليكم ؟ » قال : نعم ، فقال النبي ﷺ عند ذلك : « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : عليك ماقلت » .

وقال الله — سبحانه — : (حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ) ؛ لأن الله يحييه بالسلام فى مثل قوله — تعالى — : « وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ » ، وقوله : « وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى » وبما جاء فى التشهد : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » والتعبير بذلك للإيذان بشناعة ماقاله اليهود لمن اصطفاه الله للرسالة وسلَّم عليه ، ويقول هؤلاء اليهود : لو كان محمد نبيًّا لعذبنا الله بما نقول فهلَّا يعذبنا ، وقد فات هؤلاء الجاهلين أن الله — تعالى — يعصى بكل المعاصى ومنها الكفر به ولا يعذب أولئك العصاة عذابًا عاجلًا ولا يقطع عنهم الرزق ، وكم من نبى أُسِيءَ إليه من قومه ، ولم يعاجلهم الله بالعقوبة ، وهذا مقرر ومعروف لديهم (حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ) عذابًا يدخلونها ويصطلون بها (فَبِئْسَ الْمَصِيرُ) جهنم ، فهى شر وأشد من عذاب الدنيا ، وصدق الله — تعالى — إذ يقول : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ »[1] .

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾)

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٤٢

المفردات :

(تَنَاجَيْتُمْ) : تساررتم .

(وَتَنَاجَوْاْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ) : وتساروا بالخير وتقوى الله تعالى .

(إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ) : إنما المسارة بالمساءة ، مصدرها والحامل عليها الشيطان .

(وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ) : وليس الشيطان أو التناجى بالسوء بضارّ المؤمنين بنفسه ، بل بإرادة الله .

(وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) : فليعتمدوا على الله ، ويتركوا أمرهم إليه ، فإنه يحفظهم من كل سوء لم يكتبه عليهم .

التفسير

٩ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْاْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْاْ بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) :

هذه الآية للنهى عن المسارة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ ، والخطاب فيها يجوز أن يكون للمؤمنين المخلصين تعريضًا بالمنافقين ، وكأنه قيل : يا أيها المؤمنون المخلصون فى إيمانهم لاتفعلوا مثل المنافقين واليهود فى تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ وتناجوا فيما بينكم بما يتضمن خيرًا للمؤمنين ، ويقيكم إثم معصية الرسول ﷺ فإن ذلك هو اللائق بصدق إيمانكم .

ويجوز أن يكون الخطاب للمنافقين ، وإطلاق لفظ المؤمنين عليهم باعتبار ظاهر حالهم ، ومسايرة لهم فى زعمهم .

وقيل : إنه خطاب لليهود ، والمقصود من وصفهم بالإيمان إيمانهم بموسى - عليه السلام - كما جاء فى قوله - تعالى - : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَآمِنُواْ بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ »[1] ، وقد ختم الله الآية بقوله - سبحانه - : (وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

---

(١) سورة الحديد من الآية ٢٨

أى : وخافوا الله الذى إليه وحده تحشرون بعد بعثه لكم من قبوركم ، لا إلى غيره استقلالا أو اشتراكا .

١٠ - (إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) :

أى : إنما التناجى والمسارة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ من الشيطان ، فهو المتسبب فيها والحامل عليها ، ليدخل الحزن فى قلوب المؤمنين ، وليس الشيطان أو التناجى بالإثم والعدوان بضارهم شيئا من الضرر إلا بإرادة الله - تعالى - ومشيئته ، وذلك بأن يقضى بالموت أو الغلبة على أقاربهم ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون فلا تكترثوا بتناجيهم ، ولتتوكلوا على الله ولا تحزنوا فلا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، والمقصود من الآية إزالة خوف المؤمنين من تناجى أعدائهم .

وقد روى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس ، من أجل أن ذلك يحزنه » ، وعلق عليه الآلوسى فقال : ومثل التناجى فى ذلك أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث إن كان ذلك يحزنه .

وعلق عليه القرطبى بقوله : يستوى فى ذلك كل الأعداد ، فلا يتناجى أربعة دون واحد ، ولا عشرة ولا ألف - مثلا - لوجود هذا المعنى فى حقه ، بل وجوده فى العدد الكثير أمكن وأوقع ، فيكون التناجى دون هذا الواحد بالمنع أولى ، وإنما خص الثلاثة بالذكر ؛ لأنه أول عدد يتأتى ذلك فيه ، وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال ، وإليه ذهب ابن عمر ومالك والجمهور ، وسواء كان التناجى فى مندوب أو مباح أو واجب ، فإن الحزن يقع به ، وقد ذهب بعض الناس إلى أن ذلك كان فى أول الإسلام ؛ لأن ذلك كان فى حال المنافقين ، فيتناجى المنافقون دون المؤمنين ، فلما فشا الإسلام سقط ذلك . ا هـ .

ورأى الجمهور أرجح من ذلك .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾)

المفردات :

(تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجَالِسِ) : توسَّعوا فى أماكن الجلوس .

(فَافْسَحُواْ) : فتوسعوا .

(وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ) أي : وإذا قيل انهضوا للتوسعة على المقبلين فانهضوا .

التفسير

١١ - (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى الْمَجَالِسِ فَافْسَحُواْ يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُواْ فَانشُزُواْ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) :

لَمَّا نهى الله فيما سبق عما هو سبب للتنافر والتباغض، أمر فى هذه الآية بما هو سبب للمودة والوفاق ، وهو أن يتفسحوا فى المجالس فى المسجد أو غيره لمن يقول لهم[1] : تفسحوا

(١) التفسح: تفعل من الفسح وهو التوسعة ، يقال: فسح فلان لأخيه فى مجلسه يفسح فسحاً أى: وسع له ، وبابه منع ، ومنه قولهم : بلد فسيح ، ولك فى كذا فسحة، أما فسح – بضم السين– فهو من باب كرم، تقول: فسح المكان : أى ، صار واسعاً .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا قال لكم قائل منكم : توسعوا فى المجالس فى المسجد أو غيره فاستجيبوا له وليفسح بعضكم عن بعض فى المجالس ، ولا تتضاموا فيها لمنعه من الجلوس بينكم ، فإذا أفسحتم له يفسح الله لكم فى رحمته أو فى منازلكم فى الجنة أو فى قبوركم أو فى صدوركم أو فى رزقكم ، وقال بعضهم : المراد يفسح الله — سبحانه — لكم فى كل ما تريدون الفسح فيه مما ذكر أو غيره .

قال القرطبى : والصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير ، والأجر ، سواء أكان مجلس حرب أم ذكر أم مجلس يوم الجمعة ، فإن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه فلا يقام منه كرهاً ، بل يستأذن فى التوسعة ، قال ﷺ : « من سبق إلى ما لم يُسْبَق إليه فهو أحق به »[1] ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ بذلك فيخرجه الضيق عن موضعه ، روى البخارى ومسلم عن ابن عمر عن النبى ﷺ : « لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه الذى يجلس فيه » ، وعنه عن النبى ﷺ : « أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه ويجلس فيه آخر ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » ، وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه ثم يجلس مكانه » واللفظ للبخارى .

والأكثرون قالوا : إن الآية نزلت لما كان عليه المؤمنون من التَّضَامِّ فى مجلسه ﷺ ، والضِّنة بالقرب منه وترك التفسح لمقبل ، قال الآلوسى : وأيًّا ما كان فالحكم مطرد فى مجالسه ﷺ ومصاف القتال وغيرها .

(وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا[2] فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) .

والمعنى كما قال القرطبى : وإذا قيل لكم : انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير ، فانهضوا ولا تتباطئوا ، وقال ابن زيد : هذا فى بيت رسول الله ﷺ كان كل رجل منهم يحب أن يكون آخر عهده بالنبى ﷺ فقال — تعالى — : (وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا) عن النبى ﷺ فَانشُزُوا فإن له حوائج فلا تمكثوا .

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الخراج والإمارة والفىء » ج ٣ ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ فقد ورد الحديث برقم ٣٠٧١ بنحوه .

(٢) أمر من النشز وهو الارتفاع ، مأخوذ من نشز الأرض وهو ارتفاعها .

وذكر الله أجر من امتثل فى قوله – تعالى –: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) وهذه الدرجات إما أن تكون للذين أوتوا العلم ، وتنكير هذه الدرجات يؤذن بتعظيمها ، وإما أن تكون لجميع المؤمنين وفيهم الذين أوتوا العلم ، وعطفهم على الذين آمنوا من عطف الخاص على العام تعظيمًا لهم كأنهم جنس آخر ، ولذلك أعيد لفظ الموصول معهم .

أخرج الترمذى وأبو داود والدارمى عن أبى الدرداء مرفوعًا : « فَضلُ العالمِ على العابدِ كفَضْلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكب » – « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ »[1] .

ورفعهم درجات يكون فى ثواب الآخرة وفى الكرامة فى الدنيا ، فيرفع المؤمن على غير المؤمن ، ويرفع العالم على من ليس بعالم .

وختم الله الآية بقوله : (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) فيجزى من يعمل بهذه الآية خير الجزاء ويعاقب من لم يمتثل بما يناسبه من عقاب .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾)

---

(١) سورة الزمر من الآية ٩

المفردات :

(نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ) : ساررتموه .

(بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ) : قبل نجواكم ، وفى هذا التعبير استعارة تمثيلية أو مكنية ، والنجوى : المسارة .

(أَأَشْفَقْتُمْ) : أخفتم ، أو شق عليكم .

(وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ) : قبل توبتكم ، أو رفع عنكم التكليف بتقديمها .

التفسير

١٢-(يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوٓا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

ذكر الآلوسى فى سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس وقتادة ،أن قومًا من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول ﷺ فى غير حاجة إلَّا لتظهر منزلتهم ، وكان ﷺ سمحًا لا يرد أحدًا ، فنزلت هذه الآية .

وعن مقاتل أن الأغنياء كانوا يأتون النبى ﷺ فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره ﷺ طول جلوسهم ومناجاتهم فنزلت . قال الآلوسى تعليقًا على نزول هذه الآية : وفى هذا الأمر تعظيم للرسول ﷺ ونفع للفقراء ، وتمييز بين المخلص والمنافق ، ومحب الآخرة ومحب الدنيا ، ودفع للتكاثر عليه من غير حاجة مهمة .

وقال زيد بن أسلم : لَمَّا نزلت هذه الآية انتهى أهل الباطل عن النجوى ؛ لأنهم لم يقدموا بين يدى نجواهم صدقة ، وشق ذلك على أهل الإيمان وامتنعوا عن النجوى ، لضعف كثير منهم عن الصدقة ، فخفف الله عنهم بما نزل بعد الآية .

وهذه الصدقة كان من مقاصدها نفع الفقراء ، فإنها طلبت لتعطى لهم ، فإنه ﷺ كان لا يأكل من الصدقة ، ولم يعين فى الآية مقدارها ؛ ليجزئ القليل والكثير منها ، وقد نسخ العمل بها كما سيأتى بيانه فى الآية التالية .

قال القرطبي : الظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة ، ثم قال : وذكر القشيرى وغيره عن على بن أبي طالب أنه قال : آية فى كتاب الله ما عمل بها أحد قبلى ولا يعمل بها أحد بعدى ، وهي : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً) كان لى دينار فبعته ، فكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت بدرهم حتى نَفِد ، فنسخت بالآية الأُخرى : (ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ) ، وقال ابن عباس أيضاً : نسخها الله بالآية التى بعدها ، وقال ابن عمر :

لقد كانت لعلى بن أبي طالب ثلاث ، لو كانت لى واحدة منهن كانت أحب إلىَّ من حُمر النَّعَم : تزويجه فاطمة ، وإعطاؤه الراية يوم خيبر ، وآية النجوى.

والمعنى الإجمالى للآية : يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله : إذا ساررتم الرسول ﷺ فقدموا قبل هذه المسارة والمناجاة صدقة تصرف على فقرائكم ذلك خير لكم وأطهر لقلوبكم ، فإنه يعودها على حب البذل فى الخير ، كما أن فيه إعداد النفس لمزيد التلقى من رسول الله ﷺ فإن لم تجدوا ما تتصدقون به فإن الله غفور رحيم لمن ناجاه ولم يتصدق قبل المناجاة لفقره .

١٣ ـ (ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

أى : أخفتم الفقر بسبب أن تقدموا قبل نجواكم صدقات[1] أو أخفتم تقديم الصدقات لتوهم ترتب الفقر عليه[2] فإذ[3] لم تفعلوا ما أُمرتم به من تقديمها قبل المناجاة وتاب الله عليكم من كثرة المناجاة للرسول ﷺ من غير ضرورة ، حيث عدلتم عنها بعد تكليفكم بتقديم الصدقة قبلها ، والتزمتم القصد فيها والتخفيف فيها ، فتحقَّقَ الغرض

(١) وعلى هذا فالمفعول محذوف وهو لفظ الفقر ، وأن تقدموا التعليل لهذا الخوف ، بتقدير باء السببية أو لفظ على قبل أن تقدموا .

(٢) وعلى هذا يكون لفظ : (أن تقدموا ... إلخ) هو المفعول به لأشفق .

(٣) لفظ (إذ) فى قوله ـ تعالى ـ : (فإذ لم تفعلوا) ظرف للزمان الماضى .

الأول من تكليفكم بها ، وهو زيادة احترامكم لرسوله ، وعدم إرهاقه بكثرة المناجاة له - فإذا لم تفعلوا تقديم الصدقة ، وقبل الله توبتكم بالتزامكم القصد فى مناجاته ، فقد رفعنا عنكم تقديمها قبل المناجاة ، ونسخنا تكليفكم بها ، فالتزموا المثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فهما ركنتان هامان من أركان الإسلام ، وأطيعوا الله ورسوله فى كل ما آمركم به ، ومنها ما تقدم فى قوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ) الآية والله خبير بما تعملونه ظاهرًا أو خفيًّا ، فيجازيكم بما يتناسب مع أعمالكم ،والتعبير بلفظ (صدقات) بالجمع ، مع أن المطلوب صدقة واحدة قبل المناجاة ؛ لأن الخوف لم يكن من تقديم صدقة واحدة ، بل من تكرار تقديم الصدقة فى كل مناجاة ، ولأن جمع الصدقة فى مقابل جمع المشفقين ، يقتضى القسمة آحادًا .

وفى قوله تعالى : (وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ) إشعار بأنه - سبحانه - قد عذرهم ورخص لهم فى ألا يقدموا صدقة .

سؤال هام وجوابه :

فإن قيل : أليس الله بأعلم بأنهم لن يتصدقوا ، فما معنى تكليفهم بها ثم تغيير هذا الحكم؟ فالجواب : أنه لما حصل المراد من تكليفهم بها ، وهو توفير وقت الرسول ﷺ وعدم إرهاقه بالمناجاة الشخصية التى لا يشترك فيها المسلمون ، لم تعد هناك حاجة لبقاء التكليف بها ، وحسبهم عنها الزكاة التى أوجبها الله على الموسرين منهم ، فهى تأديب فى ثوب بر ، فحيث حصل الأدب من غير تقديمها فلا داعى لبقائها ، فى الزكاة كفاية عنها .

* (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾)

المفردات :

(تَوَلَّوْا قَوْمًا) أى : وَالَوْهُمْ من الموالاة والمناصحة . والمراد : موالاة المنافقين لليهود .

(وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ) : وهو قولهم : والله إنا لمسلمون .

(اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) أى : أعدوها سترًا ووقاية ؛ ليخلصوا عن المؤاخذة .

(فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ) : وذلك بتثبيط مَنْ لقوهم عن الدخول فى الإسلام .

(اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ) أى : استولى عليهم وتحكم فى أمورهم .

التفسير

١٤ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) :

شروع فى إنكار موالاة المنافقين لليهود ، وتعجيب من حالهم وهو خطاب للرسول ﷺ وإلى كل من يتأتى منه النظر .

والمعنى : ألم تنظر أيها الرسول إلى حال المنافقين الذين كانوا يتخذون اليهود أولياء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ،فإن حالهم ليدعو إلى العجب ، حيث إنهم يوالون قوما غضب الله عليهم وهم اليهود(مَّا هُم مِّنكُمْ) معشر المؤمنين (وَلَا مِنْهُمْ) أى : من القوم المغضوب عليهم ، لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك كما قال تعالى : « مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ »[1] وجملة (مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ) مستأنفة أو حال من فاعل تولوا .

وجوز ابن عطية أن يكون هم فى (مَّا هُم مِّنكُمْ) لليهود ،وضمير (وَلَا مِنْهُمْ) للمنافقين وعلى ذلك يكون المعنى :ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ماهم أى : القوم المغضوب عليهم منكم ولا من المنافقين الذين تولوهم فيكون فعل المنافقين على هذا أخس ،لأنهم تولوا قومًا مغضوبًا عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذِمَامهم ولا من القوم المحقين فتكون الموالاة صوابًا .

(وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أى : ويحلف المنافقون على الكذب وهو قولهم : والله إنا لمسلمون ،أو على أنهم ماشتموا النبى ﷺ على ماروى أنه كان جالسًا فى ظل حجرة من حجره وعنده نفر من المسلمين فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعين شيطان فإذا جاءكم فلا تكلموه . فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق فقال – عليه الصلاة والسلام – حين رآه :علام تشتمنى أنت وأصحابك ، فقال : ذرنى آتك بهم . فانطلق فدعاهم فحلفوا فنزلت ، خرجه الإمام أحمد وغيره .

---

(١) سورة النساء من الآية ١٤٣

حلف المنافقون على ذلك (وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أنهم كاذبون فيما حلفوا عليه ، وفى ذلك إشارة إلى عظيم شناعة ما فعلوا ، فإن الحلف على ما يعلم أنه كذب فى غاية القبح .

١٥ ـ (أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى : أنه ـ سبحانه ـ أعد للمنافقين نوعًا شديدًا من العذاب متفاقمًا ، بسبب سوء صنيعهم الذى اقترفوه بموالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم . وقد بلغوا فى الإساءة إليهم أقصى ما تعودوا الإتيان به ، وتمرنوا عليه من فساد وإفساد منذ الأزمان الماضية المتطاولة التى كانوا فيها يعيثون فى الأرض الفساد .

١٦ ـ (اتَّخَذُوٓا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) :

المعنى : أن اتخاذهم لأيمانهم الكاذبة الفاجرة وقايةً وسترًا حتى تسلم دماؤهم وأموالهم إذا ما افتضح وانكشف أمرهم هو عبارة عن إعدادهم لتلك الأيمان ، وتهيئتهم إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ، ويتخلصوا من المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل فإن ذلك متأخر عن المؤاخذة وبما ذكر وضح أن المراد من قوله ـ تعالى ـ : (اتَّخَذُوٓا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً) أى : أعدوها .

أما فى قراءة الحسن (اتَّخَذُوٓا إِيمَانَهُمْ) بكسر الهمزة ، فالاتخاذ عبارة عن التستر بالفعل كأنه قيل : تستروا بما أظهروه من الإيمان عن أن تستباح دماؤهم بالقتل وأموالهم بالغنيمة وذراريهم بالسبى (فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ) أى : فصد المنافقون الناس عن سبيل الله فى خلال أمنهم بتثبيط من لقوا منهم عن الدخول فى الإسلام وتهوين أمر المسلمين عندهم، أو فصد : ومنع المنافقون المسلمين عن سبيل الله فيهم وهو قتلهم لكفرهم ونفاقهم . هذا هو سبيل الله فيهم . ثم ختمت الآية بوعيد ثان ووصف آخر لعذابهم الذى وصف أولًا بأنه شديد فى قوله ـ تعالى ـ : « أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا » لبيان أن العذاب بوصفيه الشديد والمهين بلغ الغاية فى الشدة والإهانة حتى حق عليهم قوله ـ تعالى ـ : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ »[1] ، وقيل : الأول لعذاب القبر والثانى للآخرة

(١) سورة النساء ، من الآية ١٤٥

١٧ـ(لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَادُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْئًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) :

أى: لن تدفع عنهم عذابَ الله أموالهم مهما بلغت ، ولا أولادهم مهما كانت معونتهم ، فلا تغنى عنهم أى غناء قليلًا كان أو كثيرًا ، وليس المراد خصوص الأموال والأولاد ، بل كل مايعتبره الإنسان من دواعى القوة والمنعة . وإنما خص الأموال والأولاد بالذكر ، لأن الإنسان فى الغالب تارة مايدفع عن نفسه بالفداء ، وأخرى بالأولاد (أُوْلَٰٓئِكَ) المنافقون الموصوفون بما ذكر (أَصْحَابُ النَّارِ) الملازمون لها (هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) أى : المخلدون فيها لا يخرجون منها أبد الآبدين . روى أن رجلًا منهم قال : لَنُنْصَرُنَّ يوم القيامة بأنفسنا ، وأموالنا وأولادنا فنزلت الآية .

١٨ ـ(يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) :

أى : حين يبعثهم الله جميعًا من قبورهم ويساقون للقاء ربهم فيحلفون له ـ سبحانه ـ حينئذ بأنهم مسلمون حيث قالوا : « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » كما يحلفون لكم فى الدنيا ، ويظنون أنهم بتلك الأيمان الفاجرة على شىء من جلب منفعة أو دفع مضرة كما كانوا عليه فى الدنيا إذ كانوا يدفعون عن أموالهم الغنيمة ، وعن أرواحهم القتل ، وعن ذراريهم السبى بمثل تلك الأيمان الفاجرة . ويأملون بها فوائد دنيوية (أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ) البالغون الغاية فى الكذب التى لامطمع بعدها لكاذب ، حيث استوت حالهم فيه فى الدنيا والآخرة بتجاسرهم على علام الغيوب الذى يعلم السر وأخفى . وزعموا أن أيمانهم تجعل الكذب مقبولًا لديه ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ كما تجعله مقبولًا لدى المؤمنين الذين لايعلمون إلّا ظاهر القول ،أما كُنْهُهُ وحقيقة أمره فعلمه عند الله .

١٩ ـ(اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

أى : استولى عليهم وتمكن من عقولهم بوسوسته وتزيينه حتى اتبعوه فأنساهم بذلك ذكر الله ، قال الكرمانى : علامة استحواذ الشيطان على العبد أن يشغله بعمارة ظاهره من المآكل والمشارب والملابس ، ويشغل قلبه عن التفكر فى آلاء الله ونعمائه والقيام بشكرها ،

ويشغل لسانه عن ذكر ربه بالكذب والغيبة والبُهْتَان ، ويشغل لبه عن التفكر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها (أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ) أى : الموصوفون بما ذكر من القبائح والتمادى فى العصيان (حِزْبُ الشَّيْطَانِ) أى : جنوده وأتباعه (أَلَآ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) أى : البالغون فى الخسران أقصاه حيث إنهم بسوء صنيعهم فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، واختاروا بدله الشقاء الدائم ، والعذاب الأليم .

وفى اشتمال الجملة على حرف التنبيه والتأكيد وضمير الفصل وغير ذلك من فنون التوكيد ما لا يخفى .

(إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(يُحَآدُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ) : أى : يعادونهما ويخالفون أمرهما .

(أُولَٰئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ) : أى : فى جملة من هم أذل خلق الله .

(كَتَبَ اللهُ) أى : أثبته وأوجبه .

(أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) : العشيرة هى: القبيلة ولا واحد لها من لفظها ، والجمع : عشيرات وعشائر ا هـ . مصباح .

التفســـير

٢٠ - (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَـٰئِكَ فِى الْأَذَلِّينَ) :

استئناف مسوق لتعليل ما قبله من خسران حزب الشيطان ، والتعبير بالموصول ذمًّا لهم بما فى حيز الصِّلة وإشعارا بعلية الحكم .

والمعنى : أولئك الموصوفون بما ذكر من التولى والموادة للقوم المغضوب عليهم هم فى جملة من جعله الله أذل خلقه من الأولين والآخرين ، لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر . وحيث كانت عِزَّة الله غير متناهية كانت ذلة من يحاده كذلك .

٢١ - (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ) :

استئناف وارد لتعليل كونهم فى الأذلين .

والمعنى : قضى الله وأثبت فى اللوح المحفوظ ، وحيث جرى (كَتَبَ اللهُ) مجرى القسم أجيب عنه بما أجيب به القسم فقيل : (لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى) أى : بالحجة والعَدَد والعُدَّة ، ونظيره قوله - تعالى - : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ • إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ • وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ »[1] ويكفى فى الغلبة تحققها للرسل - عليهم السلام - فى أزمنتهم غالبا ، فقد أهلك الله الكثير من أعدائهم بأنواع العذاب كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم . وبذلك تحققت الغلبة لرسله ، كما تحققت للرسول ﷺ لأن العاقبة كانت له بعد حرب استمرت بينه وبين أعدائه ، وكذا لأتباع الرسل بعدهم . وذلك إذا كان جهادهم أعداء الدين على نحو جهاد الرسل لهم بأن يكون خالصا لوجه الله - عزَّ وجلَّ - لا لطلب ملك وسلطنة ، وأغراض دنيوية . ولن تجد مجاهدا كذلك إلا منصورا غالبا . وخص بعضهم

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ١٧١ - ١٧٣

الغلبة فى الآية بالحجة لاطرادها وهو خلاف الظاهر كما قال الآلوسى ،ويبعده سبب النزول ، فعن مقاتل : لَمَّا فتح الله - تعالى - مكة والطائف وخيبر وما حولها للمؤمنين قالوا : نرجو أن يظهرنا الله - تعالى - على فارس والروم ، فقال عبد الله بن أبى : أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التى غلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا من أن تظهروا عليهم فنزلت الآية (إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ) ينصر رسله وأولياءه بقوته القاهرة ، وعزته البالغة : فلا يغلبه على مراده كائن كيفما كان .

٢٢ - (لَاتَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰٓئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

الخطاب فى الآية للرسول أو لكل من هو أهل للخطاب .

والمعنى : من الممتنع أن تجد قوما مؤمنين يوادون من عادى الله ورسوله وذلك بأن يجمعوا بين الإيمان وموادة من عادى الله ورسوله .

وهو المراد بنفى الوُجْدان ، على معنى أنه لاينبغى أن يتحقق ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال وإن قصده وجَدّ فى طلبه كُلُّ أحد ، وذلك مبالغة فى النهى عنه والزجر عن ملابسته والتصلب فى مجانبة أعداء الله ومباعدتهم .

وقيل : المراد لا تجد قومًا كاملى الإيمان على هذه الحال ، والنفى باق على حقيقته ، والمراد بموادة المحادين موالاتهم ومظاهرتهم ، والظاهر أن المراد بمن حاد الله ورسوله الكافر . وبعض الآثار تشير إلى شموله الفاسق . روى عن الثورى أنه قال : نزلت فيمن يصحب السلطان . وقال سهل : من صحح إيمانه وأخلص توحيده فإنه لا يأنس لمبتدع ولا يجالسه ، ويظهر له من نفسه العداوة والبغضاء ، ومن داهن مبتدعًا سلبه الله حلاوة السنن ، ومن تحبب إلى مبتدع لطلب عز الدنيا أو غناها أذلَّه الله بذلك العز وأفقره بذلك الغنى ، ومن ضحك إلى مبتدع نزع الله نور الإيمان من قلبه ، ومن لم يصدق فليجرب .

وأخرج الإمام أحمد وغيره عن البراء بن عازب مرفوعًا : «أوثق الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله » ، ونعى الآلوسى على بعض المنتسبين إلى بعض المتصوفة فقال : ومن العجب أن بعض المنتسبين إلى المتصوفة ـ وليس منهم ولا قلامة ظفر ـ يوالى الظلمة ، بل من لا علاقة له بالدين منهم ، وينصرهم بالباطل ، ويظهر من محبتهم ما يضيق عن شرحه صدر القرطاس اهـ

وقد زاد ـ سبحانه ـ النهى عن موادة من عادى الله ورسوله تأكيدًا بقوله : (وَلَوْ كَانُوٓاْ آبَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ) أى : ولو كان من حادّ الله ورسوله آباء الموادين أو أبناءهم أو إخوانهم أو من قبيلتهم التى ينتمون إليها ، ويستظلون بلوائها . وليس المراد بمن ذكر خصوصهم ، وإنما المراد الأقارب مطلقًا .

وقدم الآباء لوجوب طاعتهم على الأبناء ومصاحبتهم فى الدنيا بالمعروف ، وثنى بالأبناء لقوة الارتباط فى الدنيا بهم لكونهم أكبادهم ، وثلث بالإخوان ؛ لأنهم المناصرون لهم ، وختم بالعشيرة للاعتماد على أفراد القبيلة والتناصر بهم بعد الإخوان غالبًا (أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ) إشارة إلى الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله وإن كانوا أقرب الناس إليهم ، وأمسهم رحمًا بهم ، وما فى الإشارة من معنى البعد فى قوله ـ تعالى ـ : (أُوْلَٰٓئِكَ) للتنويه برفعة شأنهم ، وعلو قدرهم ، أولئك كتب الله وأثبت فى قلوبهم الإيمان ، ولَمَّا كان الشىء يراد أولًا ثم يقال ثم يكتب عبر عن المبدأ بالمنتهى وهو الكتابة للتأكيد والمبالغة فى اتصافهم به : (وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) أى : قواهم بكتاب أنزله ، فيه حياة لهم وهو القرآن ، أو بروح من الإيمان على أنه فى نفسه روح ؛ لأن به حياة القلوب ، والمراد بالروح على هذا نور يقذفه الله فى قلب من يشاء . تحصل به الطمأنينة ، والعروج على معارج التحقيق .

وتسميته روحًا ؛ لأنه سبب الحياة الطيبة الأبدية .

(وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) ذلك بيان لآثار رحمته ـ تعالى ـ الأخروية إثر بيان ألطافه الدنيوية حيث يدخلهم فى جنات باسقة الأشجار طيبة الثمار . تتخلل أشجارها وتنساب بين قصورها أنهار جارية متدفقة تزيدها جمالًا وبهاء ، ماكثين فيها أبد الآبدين

(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) استئناف جار مجرى التعليل لِمَا آتاهم الله من آثار رحمته التى أفاضها عليهم فى الدارين الدنيوية والأُخروية أى :قبل أعمالهم (وَرَضُوا عَنْهُ) بيان لابتهاجهم الذى بدت آثاره عليهم بما أُوتوه عاجلًا وآجلًا . وقد شرفهم – سبحانه – بقوله : (أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ...) المختصون به – تعالى – وذلك تشريف لهم لا يعدله تشريف ما .

(أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) هذا بيان لاختصاصهم بسعادة الدارين ،جاء بجملة مؤكدة تأكيدا قويًا كما سبق بيانه قريبا .

والآية قيل : نزلت فى أبى بكر – رضى الله عنه – أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : حُدِّثت أن أبا قحافة سب النبى ﷺ وصكه أبو بكر صكة فسقط ،فذُكر ذلك للنبى ﷺ ، فقال : أفعلت يا أبا بكر ؟ قال : نعم . قال : لا تعد . قال : والله لو كان السيف قريبًا منى لضربته . وفى رواية : لقتلته . فنزلت .

وقيل : نزلت فى أبى عبيدة بن عبد الله بن الجراح . أخرج ابن أبى حاتم والطبرانى وجماعة عن ابن عباس عن عبد الله بن شوذب قال : جعل والد أبى عبيدة يتصدى له يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله فنزلت ، وقيل : نزلت فى مصعب بن عمير قتل أخاه يوم أحد ، وقيل : نزلت فى على كرم الله وجهه ، وحمزة وعبيدة ابن الحارث يوم بدر قتلوا عتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة ، وعلى أى حال فالحكم عام . وإن نزلت فى أناس بأعيانهم كما لا يخفى .

سورة الحشر

مدنية وعدد آياتها أربع وعشرون
وتسمى سورة بنى النضير كما قال ابن عباس

مناسبتها لما قبلها :

إن فى آخر تلك « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » ، وفى أول هذه (فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) ، وفى آخر السابقة ذكر من حاد الله ورسوله ، وفى أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله ، وأن فى الأولى ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضًا ، وفى هذه ذكر ما حل باليهود ، وعدم إغناء تولى المنافقين إيَّاهم شيئًا .

أهم أغراض السورة :

ابتدأت بتنزيه الله وتمجيده ، وبيان أن الكون له وحده بما فيه من إنسان ، وحيوان ، وجماد ونبات يشهد بعظمته وسلطانه : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ...) الآية ، ثم تحدثت عن مظاهر قدرته فى إخراج بنى النضير وإجلائهم عن ديارهم ولم تنفعهم حصونهم العالية ولا قلاعهم المنيعة : (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...) الآيات ، ثم تناولت موضوع الفىء ، فبينت شروطه وأحكامه مع بيان الحكمة فى إعطائه الفقراء : (وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ ...) الآيات ، ثم أشارت إلى أصحاب رسول الله وأثنت عليهم الثناء العاطر بذكر تضحيات المهاجرين ومآثر الأنصار : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ...) الآيات .

وفى مقابلة المهاجرين والأنصار ذكرت السورة المنافقين الأشرار الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام وكان مثلهم معهم كمثل الشيطان الذى يزين للإنسان سوء عمله ، ثم يتخلى عنه ويخذله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ...) الآيات .

وحثت المؤمنين على تقوى الله ، وحذرت من ذلك اليوم الرهيب الذى لا ينفع المرء فيه إلا ما قدمت يداه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ...) الآية ، وبينت الفرق الكبير بين

أهل الجنة ، وأهل السعير ، وبين مصير السعداء ، ومصير الأشقياء : (وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ...) الآيات .

وختمت السورة ببيان شأن القرآن ، وعظيم تأثيره ، وأنه رفيع القدر ، نابه الذكر ؛ لأن الذى أنزله هو المتصف بالأسماء الحسنى : (هُوَ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ...) الآيات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥)

المفردات :

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) التسبيح : التنزيه لله – تعالى – اعتقادا وقولًا وعملًا عمَّا لايليق به .

(لِأَوَّلِ الْحَشْرِ) : عند أول جمع اليهود لإجلائهم . فالحشر معناه : الجمع ، ومنه : وحشر لسليمان جنوده .

(حُصُونُهُمْ) : مفرده حصن ، وهو المكان المنيع الذى لا يقدر عليه لارتفاعه ، وحصن حصانة فهو حصين أى : منيع .

(وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) أى : ألقاه وأنزله بشدة .

(بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) : عادوهما وخالفوهما .

(مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ) اللِّينة – بكسر اللام – : النخلة القريبة من الأرض الكريمة الطيبة .

التفسير

١ – (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

المعنى : نزَّه اللهَ عما لا يليق به ما فى السموات وما فى الأرض . وذلك يعم جميع ما كان مستقرًّا فيهما ، وما كان من أجزائهما حيث أريد به معنى عام شامل لكل ما نطق بلسان المقال كالملائكة والمؤمنين من الثقلين، وما نطق بلسان الحال كغيرهم، وهو المراد من قوله – تعالى – : « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ »[١] ، وذكرت اللام فى لفظ الجلالة مع الفعل المتعدى وهو سبَّح إما للتأكيد أو للتعليل بمعنى فعل التسبيح لأجل الله – تعالى – وخالصا لوجهه . وبدئت بعض السور بلفظ سبح وبعضها بلفظ يسبح للإيذان بتحقق التسبيح فى جميع الأوقات (وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الذى لا يُغالب ولا يُمانع ولا يعجزهُ شىءٌ كائنا ما كان ، ولا يفعل إلَّا ما تقتضيه الحكمة .

وكرر الموصول هنا فقيل : (مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسبيح .

---

(١) سورة الإسراء من الآية : ٤٤

روى أنه - عليه الصلاة والسلام - لمَّا قدم المدينة صالح بنى النضير وهم رهط من اليهود من ذرية هارون - عليه السلام - نزلوا بالمدينة فى فتن بنى إسرائيل انتظاراً لبعثة النبى ﷺ . وفى صلحه معهم عاهدهم أن يكونوا لا له ولا عليه . فلما ظهر - عليه الصلاة والسلام - على المشركين يوم بدر قالوا : هو النبى الذى نعته فى التوراة لا ترد له راية ، فلما كان يوم أحد ما كان ارتابوا ونكثوا العهد فخرج كعب بن الأشرف زعيمهم فى أربعين راكبا إلى مكة فحالفوا قريشا عند الكعبة على قتاله - عليه الصلاة والسلام - فأمر رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصارى فقتل كعبا غيلة وكان أخاه من الرضاعة ثم صبحهم - عليه الصلاة والسلام - بالكتائب فقال لهم : اخرجوا من المدينة فاستمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدس عبد الله بن أبى المنافق وأصحابه من قال لهم : لا تخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم ولئن خرجتم لنخرجن معكم ، فسدوا الأزقة وحصنوها فحاصرهم النبى - عليه الصلاة والسلام - إحدى وعشرين ليلة . فلما قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين لهم طلبوا الصلح ، فأبى ﷺ إلَّا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير . يحملون ما شاءوا من متاعهم . فجلوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلَّا أهل بيتين منهم هما آل أبى الحقيق وآل حي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة منهم بالحيرة ، فأنزل الله - : تعالى -(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ) إلى قوله : (وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) ، وقوله - تعالى - :

٢ - (هُوَ الَّذِىٓ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى الْأَبْصَٰرِ) :

هذه الآية بيان لبعض آثار عزته تعالى ، وإحكام حكمته إثر وصفه - تعالى - بالعزة القاهرة والحكمة البالغة على الإطلاق فى الآية السابقة ، وعلى هذا فالضمير راجع إلى الله سبحانه وتعالى .

والمعنى : ذلك المنعوت بالعزة والحكمة :(هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) وهم يهود بنى النضير . أخرجهم من ديارهم بالمدينة لأول الحشر بمعنى عند أول إخراج لهم ، والحشر : إخراج الجماعة من مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب وغيرها ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط ، وهم أول من أخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام وغيرها ، وآخر حشرهم بإجلاء عمر – رضى الله عنه – إياهم من خيبر إلى الشام ، وقيل : آخر حشرهم يوم القيامة .

ومشروعية الإجلاء كانت فى ابتداء الإسلام ، أما الآن كما يقول الآلوسى فقد نسخت فلا يجوز إلا القتل أو السبى أو ضرب الجزية .

وكان من شأنكم أيها المسلمون أنكم (مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ) من ديارهم لشدة بأسهم ، ومنعة حصونهم وكثرة عددهم وعُددهم كما كان من شأنهم أنهم ظنوا أن حصونهم مانعتهم من أمر الله تعالى ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال لمقابلة ما ظننتم أن يخرجوا ، أن يقال : وظنوا ألّا يخرجوا ولكن عدل إلى ما فى النظم الجليل للإشعار بأن ظنهم قارب اليقين فناسب أن يؤتى بما يدل على فرط وثوقهم بما هم فيه بتقديم الخبر وهو (مَانِعَتُهُمْ) على المبتدأ وهو (حُصُونُهُمْ) للدلالة على الاختصاص والتوكيد فكأنه لا حصن أمنع من حصونهم ليكون مانعًا من الوصول إليهم (فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ) أى : نزل بهم أمر الله وقدره المقدور لهم من حيث لم يتوقعوه ولم يخطر لهم على بال وهو قتل رئيسهم كعب بن الأشرف فإنه مما أضعف قوتهم ، وفل شوكتهم ، وسلب قلوبهم الأمْنَ والاطمئنانَ وألبسهم أردية الخضوع والاستكانة (وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ) بإلقاء الخوف الشديد فيها بقوة ، أو من مكان بعيد (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ) الجملة مستأنفة جواب عن سؤال مقدر تقديره : فما حالهم بعد قذف الرعب فيها أو معه ؟ فأجيب بالجملة .

والمعنى : يخربون بيوتهم من باطنها بأيديهم ليسدوا بأخشابها وأحجارها أفواه الأزقة تحصينًا لها وحتى لا تبقى صالحة لسكنى المسلمين والانتفاع بها بعد جلائهم عنها فيزيدهم ذلك ندمًا وحسرة . ولينقلوا ما فيها من جيد الخشب والساج معهم ، كما كانوا يخربون تلك

البيوت من خارجها بأيدى المؤمنين الذين أرادوا اقتحامها عليهم ليزيلوا تحصنهم بها ، وليتسع مجال المعركة أمام المسلمين فيتسنى لهم الغلبة عليهم ، واستئصال شأفتهم فلا تبقى لهم بالمدينة دار .

ومعنى تخريبهم لبيوتهم بأيدى المؤمنين : أنهم لما عرضوا أنفسهم وديارهم بنكث العهد وكانوا السبب فيه فكأنهم أمروا المسلمين به وكلفوهم إياه ، وبهذا الاعتبار عطفت بأيدى المؤمنين على بأيديهم (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ) أى : فتأملوا يا أولى العقول والألباب ، واتعظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة ، واتقوا مباشرة ما أوصلهم إليه الكفر والعصيان واحذروه واعتمدوا على الله وحده حتى لا تعاقبوا بمثل عقابهم .

٣ ـ (وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ) :

أى : ولولا أن كتب الله عليهم الإخراج أو الخروج عن أوطانهم على تلك الصورة الفظيعة (لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا) بالقتل والسبى كما فعل ببنى قريظة وجىء بقوله ـ تعالى ـ : (وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ) لبيان أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا وهو القتل فلا نجاة لهم من عذاب الآخرة ، وليس تمتعهم أياما قلائل بالحياة ، وتهوين أمر الجلاء على أنفسهم بنافع لهم ، وفيه إشارة إلى أن القتل أشق من الجلاء لا لذاته ، بل لأنهم يصلون عنده إلى عذاب النار.

وفرق بعضهم بين الجلاء والإخراج بأن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد . وقال الماوردى : الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج قد يكون لواحد ولجماعة .

٤ ـ (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ : (ذَٰلِكَ) تنبئ بأن ما حاق بهم أو ما سيحيق بسبب أنهم عادوا الله ورسوله وخالفوهما وفعلوا ما فعلوا من المحكى عنهم من القبائح والسيئات (وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ) الاقتصار على ذكر مشاقة الله لتضمنها لمشاقة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وليوافق قوله ـ تعالى ـ : (فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) أى : يعاقبه ؛ لأنه ـ سبحانه ـ شديد العقاب

كأنه قيل : ذلك الذى نزل بهم من العقاب أو سينزل بهم هو بسبب مشاقتهم لله تعالى ورسوله ﷺ وكل من يشاق الله - تعالى - كائنًا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد

٥ - (مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ) :

قال الحافظ بسنده عن جابر قال : رخص لهم فى قطع النخل وشدد عليهم ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا : يارسول الله علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا ؟ وكان بعضهم قد شرع أثناء الحصار فى قطع بعض النخيل إغاظة لهم وإرهابًا لقلوبهم فأنزل الله تعالى الآية .

والمعنى : ما قطعتم أى نخلة كما قال الحسن ومجاهد والراغب وجماعة ، أو أى نخلة كريمة كما قال الثورى ، كأنها أخذت من اللِّين ، أو تركتموها قائمة على أصولها لم تتعرضوا لها بشىء ، فذلك الذى فعلتموه من القطع أو الترك بأمر الله - تعالى - الواصل إليكم بواسطة رسول الله ﷺ أو بإرادته - سبحانه - ومشيئته « وَلِيُخْزِىَ الْفَاسِقِينَ » أى : وليعز المؤمنين ، ويذل اليهود ويغيظهم ؛ لأنهم إذا رأوا المؤمنين يتحكمون فى أموالهم كما أرادوا ، ويتصرفون فيها حسبما أحبوا من القطع أو الترك يزدادون غيظا ، وكمدا ، وحسرة ، وندما ، حيث إن فى القطع خزيًا - بالغًا لنعمها بأيدى أعدائهم المسلمين وحسرة شديدة ، وفى الإبقاء حسرة أشد ، وخزيًا أبلغ لكونها باقية فى أيدى أعدائهم المسلمين يتمتعون بها وينعمون بثمرها . قال بعضهم : هاتان الحسرتان تتحققان أيضا كيفما كانت المقطوعة أو المتروكة ؛ لأن النخل مطلقًا مما يعز على أصحابه فلا تكاد تسمح أنفسهم بتصرف أعدائهم فيه حسبما شاءوا ، وعزته على صاحبه الغارس له أعظم من عزته على صاحبه غير الغارس له ، وقد سمعت بعض الغارسين يقول : السعفة عندى كإصبع من أصابع يدى ، وتحقق الحسرة على الذهاب إن كانت المقطوعة نخلة كريمة أظهر .

واستدل بالآية على جواز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم وإحراق زروعهم زيادة لغيظهم ومضاعفة لحسرتهم .

ويرى الفقهاء فى المسألة أن القطع والتحريق أولى إن علم بقاؤها فى أيدى الكفار ، وإلا فالإبقاء أولى ما لم يتضمن ذلك مصلحة .

(وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾)

المفردات :

(وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ) الفىء : كل مال أُخذ من الكفار بغير قتال .

(فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ) إيجاف الخيل والركاب : سرعة سيرها ، يقال : أوجف البعير : حثه وحمله على السير السريع ، والركاب اسم جمع لا واحد له من لفظه غلب على مايركب من الإبل كما تطلق كلمة الراكب على راكبه ، فلا يقال فى الأكثر الفصيح راكب لمن كان على فرس ونحوه ، بل يقال : فارس ، أى : فما أجريتم على تحصيله خيلاً ، ولا ركاباً .

(مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ) : هم أهل قرى الكفار عامة اللذين أُخذت أموالهم صلحاً بغير إيجاف خيل ولا ركاب .

(لِذِى الْقُرْبَىٰ) : هم بنو هاشم وبنو عبد المطلب .

(كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ) الدولة : مايتداول فى الأيدى ، فيحصل فى يد هذا تارة وفى يد هذا أخرى ، أى : يتداوله الأغنياء بينهم فلايصيب الفقراء .

التفسـير

٦ - (وَمَآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) :

شروع فى بيان حال ما أخذ من أموالهم بعد بيان ما حل بأنفسهم من العذاب العاجل والآجل ، أموال الكفرة التى تكون فيئًا للمؤمنين ، لأن الله خلق الناس لعبادته ، وخلق ما خلق من الأموال ليتوسلوا بها إلى طاعته .

(وَلَـٰكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ) أى : إن سنته جارية منذ الأزل على أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم بقذف الرعب فى قلوبهم ، وقد سلط رسوله ﷺ على بنى النضير تسليطًا غير مألوف من غير أن تتحملوا مضايق الخطوب ، وتقاسوا شدائد الحروب ، لذلك فلا حق لكم فى أموالهم ، ويكون أمرها مفوضًا إليه ﷺ (وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) فيفعل ما يشاء كما يشاء على الوجوه المعهودة تارة وأخرى على غيرها لا يغالب ولا يمانع ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٧ - (مَّآ أَفَآءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) :

بيان لحكم ما أفاء الله على رسوله ﷺ من قرى الكفار على العموم ، بعد بيان حكمه فيما أفاءه من بنى النضير .

فالآية جوابٌ على سؤال مقدر ناشئ عمَّا فهم من الكلام السابق ، فكأن قائلًا يقول : قد علمنا حكم ما أفاء الله من بنى النضير ، فما حكم ما أفاء الله تعالى من غيرهم ؟ فقيل : ما أفاء الله على رسوله ... الآية ، ولذا لم تعطف على ما قبلها ، وإعادة عين العبارة الأولى فى الآيتين لزيادة التقرير (فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ) قد اختلف فى قسمة ما فعل بديارهم ونخيلهم من التخريب والقطع .

نزلت حين طلب الصحابة منه ﷺ أن يقسم بينهم أموال بنى النضير قسمة الغنائم كما حدث فى بدر ، فبين الله – تعالى – أنها فىء لا غنيمة إذ إنهم لم يقطعوا لها شقة ، ولم يلقوا فيها مشقة ، ولم يلتحموا فيها بقتال شديد ، بل ذهبوا إليها رجالًا ، وكانت على ميلين من المدينة ، وفتحت صلحًا ، فهى للرسول خاصة يتصرف فيها كما أمره الله سبحانه.

والمعنى : ما رجع إليكم وحصلتم عليه من أموال بنى النضير بعد رحيلهم عنها فهى لرسول الله ﷺ خاصة يتصرف فيها حسبما شرعه الله تعالى ، فقد أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عمر بن الخطاب – رضى الله تعالى عنه – قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، وكانت لرسول الله ﷺ خاصة ينفق منها على أهله ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع ، عدة فى سبيل الله يعطى منها من يشاء ، ولذلك آثر المهاجرين بها ولم يعط الأنصار شيئًا عدا ثلاثة لفقرهم كما قال الضحاك .

وخصت به ﷺ لأنها حصلت لكم صلحًا ، فلم تحصلوها بكد اليمين ، وعرق الجبين ولم توجفوا على الوصول إليها خيلًا ولا ركابًا ، بمعنى أنكم لم تدفعوها دفعًا شديدًا لغزو بنى النضير وإنما ذهبتم إليها رجالًا ما عدا النبي ﷺ لقرب ديارهم من المدينة ، وفيما ذكر إشعار بأن هذه الأموال حرية بأن تكون لرسول الله ﷺ ، وإنما وقعت فى أيديهم بغير حق . فأرجعها الله إلى مستحقها ، من فاء الظل : إذا رجع ، وكذلك شأن الفىء من أهل القرى غير بنى النضير فقيل : يسدس كظاهر الآية ، ويصرف سهم الله فى عمارة الكعبة ، وسائر المساجد ، والمصالح العامة وقيل : يخمس . وهو الصحيح وذكر الله للتعظيم ، ويصرف سهم الرسول بعد وفاته إلى إمام المسلمين على قول ، وإلى العساكر والثغور على قول ، وإلى مصالح المسلمين على قول .

وحاصل المعنى : أن فىء أهل القرى يقسم إلى خمسة أسهم ، فيصرف سهم منه لله وللرسول وذكره تعالى للتيمن والتبرك فإن لله ما فى السموات والأرض كما روى عن ابن عباس والحسن عن محمد بن الحنفية ، وفيه تعظيم لشأن الرسول ﷺ .

وسهم لذى القربى من بنى هاشم وبنى عبد المطلب دون من عداهم لقوله ﷺ : بنو هاشم وبنو عبد المطلب شىء واحد ، وشبك بين أصابعه ، ويقول فيهم : لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام كما فى البخارى .

وسهم لليتامى . وهم أطفال المسلمين الذين فقدوا آباءهم ولو كان لهم أجداد ، وسهم للمساكين وهم ذوو الحاجة والفقر ، وسهم لابن السبيل ، وهو الغريب المنقطع فى سفره عن ماله ، وقيل : يخمس ، فيصرف خمسه كما يصرف خمس الغنيمة المذكورة فى قوله ـ تعالى ـ : « وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ »[1] الآية ، والأخماس الأربعة الباقية يصرفها الرسول كما يشاء ، له أن يعمم وله أن يخصص ذلك بالفقراء .

وصرف الفىء على النحو المذكور (كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ) تعليل للتقسيم السابق أى : حتى لا يكون شيئًا يتداوله الأغنياء منكم ، ويتعاورونه فلا يصيب الفقراء مع أن حقه أن يكون لهم . أو حتى لا يكون دولة جاهلية بينكم ، فإن الرؤساء كانوا يستأثرون بغنيمتهم ، ويقولون : من عزّ بزّ . وقرئ دولة بضم الدال وفتحها وهما بمعنى واحد .

(وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ...) الآية : الواو اعتراض على سبيل التأكيد ، وليست عاطفة .

أى : وما أعطاكم الرسول من الفىء فخذوه ، وما نهاكم عن أخذه أو عن تعاطيه فاتركوه وابتعدوا عنه ، وحمل الآية على خصوص الفىء مروى عن الحسن لقرينة المقام ، وفى الكشاف : الأجود أن تكون الآية عامة فى كل ما أمر به ﷺ ونهى عنه وذلك لعموم (ما) وأمر الفىء داخل فى العموم دخولًا أوليًّا (وَاتَّقُواْ اللَّهَ) فى مخالفته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وذلك تعميم إثر تعميم ، ويتناول كل مايجب أن يتقى لدخوله . كما سبق فى عموم (ما) روى ذلك عن ابن جريج .

(إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) : فيعاقب كل من يخالف أمره ونهيه عقابا شديدا ليس لهم من يدفعه عنهم من ولى أو نصير .

---

(١) سورة الأنفال من الآية : ٤١

قال الإمام بسنده عن ابن مسعود أنه قال : لعن الله الواشمات[١] ، والمستوشمات[٢] ، والمتنمصات[٣] ، والمتفلجات[٤] للحسن المغيِّرات خلق الله – عز وجل – قال : فبلغ امرأة يقال لها : أم يعقوب فجاءت إليه ، فقالت : بلغنى أنك قلت : كيت وكيت . فقال : مالى لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وفى كتاب الله ، فقالت : إنى لأقرأ بين لوحيه فما وجدته ، قال : إذا كنت قرأتيه فقد وجدتيه أما قرأت (وَمَآ آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ) . قالت : بلى . قال : فإن النبى ﷺ نهى عنه إلى آخر الحديث . أخرجه الشيخان من حديث سفيان الثورى .

(لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾)

(١) هن اللاتى يصنعن الوشم وذلك بغرز البشرة بإبرة ثم يذر عليها لون أحمر .

(٢) من يطلبن من غيرهن الوشم .

(٣) اللاتى يأمرن بترقيق حواجبهن طلباً للزينة .

(٤) اللاتى يباعدن بين الثنايا والرباعيات بترقيق الأسنان بالمبرد .

المفردات :

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ) أى : نزلوا المدينة مقيمين بها ، وأخلصوا الإيمان .

(وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا) أى : إن نفوسهم لم تطمح إلى شىء مما أعطى المهاجرون من الفىء وغيره .

(وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) أى : حاجة بمعنى أنهم يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم .

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) أى : ومن أبعده الله بتوفيقه من أن يغلب عليه حب المال وبغض الإنفاق كان من المفلحين ، وأضيف الشح إلى النفس ، لأنه غريزة فيها ، وأما البخل فهو المنع نفسه بأن يبخل على الناس بما فى يده ، وقيل : الشح : بخل مع حرص .

التفسير

٨ - (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) :

والمعنى : يقول - تعالى - مبينًا حال الفقراء المستحقين لمال الفىء بأنهم هم الذين أخرجهم الكفار من ديارهم وأموالهم وكانوا مائة رجل كما قيل فخرجوا يبتغون رزقًا منه - تعالى - فى الدنيا ومرضاة فى الآخرة ، وقد وصفوا أولًا بما يدل على استحقاقهم للفىء حيث وصفوا بالإخراج من الديار والأموال ، ووصفوا ثانيًا بما يوجب تفخيم شأنهم ويؤكده ، مما يدل على توكلهم التام ورضاهم بما قدره المليك العلام فقال : (يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) وكانت نصرة الله - تعالى - ورسوله ﷺ هى مقصدهم فقد قال - سبحانه - : (وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ) أى : ويضمرون فى أنفسهم عزمًا أكيدًا بأن يبذلوا كل مرتخص وغال فى سبيل نصرة دين الله ، أو فإن خروجهم من بين الكفار مراغمين لهم مهاجرين إلى المدينة تقارنه نصرة لله ولرسوله وأى نصرة تعدل ذلك .

(أُولَٰئِكَ) الموصوفون بما ذكر من الأوصاف العظيمة (هُمُ الصَّادِقُونَ) الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه فى دعواهم الإيمان ، حيث فعلوا ما يدل عليه أقوى دلالة مع إخراجهم من

أموالهم وأوطانهم لأجله ـ سبحانه ـ وهذا الوصف خاص بهم لا بغيرهم ممن آمن فى مكة ، ولم يخرج من داره وماله ولم يثبت منه نحو ما ثبت منهم من لين مع المشركين .

٩ ـ (وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) :

كلام مستأنف لمدح الأنصار بخصائص حميدة من جملتها مدح محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاصهم ببعض مال الفىء دونهم وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة ، وقد تبوءوا الدار والإيمان ، وتمكنوا فيها أشد تمكن ، ونسبة التبوء إلى الدار ، والمراد بها المدينة ظاهر ؛ لأن التبوء النزول فى المكان ونسبته إلى الإيمان باعتبار جعله مستقرًّا وموطنًا حيث استقرت به نفوسهم واطمأنت إليه قلوبهم ، والتعريف فى الدار للتنويه كأنها الدار التى تستحق أن تسمى دارًا ، وقد أعدها الله لهم ليكون تبوؤهم إياها مَنْحًا لهم ، وقيل : والذين تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان ، وكان تبوؤهم للدار والإيمان من قبل هجرة المهاجرين ولا يلزم منه سبق إيمانهم على إيمان المهاجرين حتى يقال الأمر بالعكس ، بل نهاية ما يلزم عليه سبق إيمان الأنصار على هجرة المهاجرين (يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ) من إخوانهم المهاجرين ، وقد بلغ من سماحتهم أنهم أنزلوهم منازلهم ، وأشركوهم أموالهم ونزلوا لهم عن بعض ما يعز عليهم حتى قيل : إن من كانت عنده امرأتان نزل عن إحداهما وطلقها حتى يتزوجها رجل من المهاجرين وهم مع كل ذلك لا يجدون فى أنفسهم حسدًا أو غيظًا مما أُعطِىَ المهاجرون من الفىء وغيره ولا مرّ ذلك بخاطرهم فضلًا عن أن تطمح إلى شىء منه نفوسهم (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) بمعنى أنهم يقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شىء من الطيبات ولو كان بهم حاجة وخَلَّة ، وذلك بتقديم حاجة المحاويج على حاجة أنفسهم .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ، فقام رجل من

الأنصار- وفي رواية فقال أبو طلحة- : أنا يا رسول الله ، فذهب به إلى أهله فقال لامرأته : أكرمي ضيف رسول الله ﷺ ، قالت : والله ما عندي إلَّا قوت الصبية . قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفئي السراج ونطوي الليلة لضيف رسول الله – صلى الله تعالى عليه وسلم- ففعلت ، ثم غدا الضيف على رسول الله ﷺ فقال : لقد عجب الله من فلان وفلانة وأنزل الله فيهما (وَيُؤْثِرُونَ ...) الآية .

(وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) : لعل المراد بالشح البخل المتناهي بحيث يبخل المتصف به بمال غيره . أي : لا يودُّ جودَ غيره ، وتنقبض نفسه منه ، ويسعى في ألّا يكون ، وقيل : إنه اللؤم ، وإضافته إلى النفس ؛ لأنه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذي هو البخل ، وقال الراغب : الشح : بخل مع حرص وذلك فيما كان عادة ، وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : ليس الشح أن يمنع الرجل ماله ولكنه البخل ، إنما الشح أن تطمع عين الإنسان إلى ما ليس له ، ويفهم من الآية ذم الشح ذمًّا بالغًا ، ومن يوق شح نفسه بتوفيق الله ومعونته حتى يخالفها فيما يغلب عليها من حب المال، وبغض الإنفاق فهؤلاء هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه ، والجملة الشرطية تذييل وتوكيد لمدح الأنصار والثناء عليهم لتناوله إيَّاهم تناولًا أصليًّا ، وكانت الإشارة في قوله – تعالى- : (فَأُولَٰئِكَ) جمعًا باعتبار معنى (مَنْ) كما أفرد الضمير في قوله – سبحانه –: (وَمَن يُوقَ) باعتبار لفظها .

١٠ – (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) :

هؤلاء هم القسم الثالث ممن تستحق فقراؤهم من مال الفيء ، ذكرهم- سبحانه – بعد ذكر المهاجرين والأنصار ، والمراد بهم التابعون بإحسان كما في آية براءة « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ »[1] .

---

(١) سورة التوبة ، من الآية ١٠٠

فالتابعون بإحسان الذين هاجروا بعدما قوى الإسلام ، أو المتبعون لآثار المهاجرين والأنصار الحسنة ، وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية إلى يوم القيامة ، وهذا ما يشير إليه قوله – سبحانه – : (وَالَّذِينَ جَآءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ ...) الآية لمدحهم بمحبتهم لمن تقدمهم من المؤمنين ، ومراعاتهم لحقوق الأخوة فى الدين ، والسبق بالإيمان قائلين : ربنا اغفر لنا ولإخواننا فى الدين ، والأخوة عندهم أعز وأشرف من النسب ، وتضرعوا إليه تعالى أن يطهر قلوبهم من الحقد على المؤمنين على الإطلاق ، وأن يجعل حبهم خالصًا لله وحده : (رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) تستجيب دعاء الصادقين مع المبالغة فى الرأفة والرحمة فحقيق بنا أن نطمع فى تحقيق ما ندعو به لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .

وفى الآية حث وتوجيه وترغيب فى الدعاء إلى الصحابة . وتصفية القلوب من بغض أحد منهم مع الاعتراف بفضلهم ، وحسن صنيعهم وسبقهم إلى البذل والتضحية .

قال ابن كثير : ما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية أن الرافضى الذى يسب الصحابة ليس له من مال الغنيمة شىء لعدم اتصافه بأوصاف المؤمنين .

وقد روى الشعبى أنه قال : تفاضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلة : سئلت اليهود : مَن خير أهل ملتكم؟ فقالوا : أصحاب موسى ، وسئلت النصارى مَن خير أهل ملتكم؟. فقالوا : أصحاب عيسى ، وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟. فقالوا : أصحاب محمد . أمروا بالاستغفار لهم فسبوهم . فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة .

* (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(نَافَقُوا) : أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر .

(لِإِخْوَانِهِمُ) : أمثالهم فى الكفر أو الصداقة والموالاة ، وكثر جمع الأخ - مرادًا به الموالاة والصداقة - على إخوان ، ومرادًا به الأُخوة فى النسب على إخوة .

(لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ) : ليفرن منهزمين وقد أعطوا ظهورهم للعدو .

(رَهْبَةً) : خوفًا وهيبة .

(لَا يَفْقَهُونَ) : لايدركون الأُمور على حقيقتها .

التفسير

١١ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) :

هذه الآية حكاية لِمَا جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة ، والأحوال الفاسدة وتعجيب من سلوكهم وأفعالهم بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين ، والإشادة بأخلاقهم الطيبة وشمائلهم الكريمة على اختلاف طبقاتهم ، وترديد أقوالهم السمحة .

والخطاب فى الآية للرسول ﷺ أولًا ، ثم لكل أحد له حظ من تلقى الخطاب أو الانتفاع بمضمونه .

والمعنى : ألم تتعجب يا رسول الله أنت ومن معك من أحوال الذين تمكن منهم النفاق فأخفوا الكفر وأظهروا الإيمان مثل عبد الله بن أبىّ وأمثاله من المنافقين ، وما ذهبوا إليه من الخيانة وما تورطوا فيه من سلوك شائن ، وعمل قبيح؛ إنهم يقولون لإخوانهم المتأصلين فى الكفر ، وأصدقائهم الذين يوالونهم من يهود بنى النضير مؤكدين مقسمين : لئن أخرجتم ، وأكرهتم على ترك بلدكم ووطنكم لنخرجن معكم تضامنًا ونصرة ، ولا نطيع فى شأنكم أحدًا يمنعنا عن مناصرتكم أبدًا ، وإن طال الزمان ، وإن قوتلتم من أحد كائنًا من كان أو عاداكم أحد لنكونن فى نصرتكم ، ومعاونتكم على عدوكم ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فى أقوالهم ، ضَالُّون مُضِلُّون فى وعودهم، وإن عززوا ذلك وأكدوه بالأيمان . وقوله ـ تعالى ـ : (وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) مبادرة بتكذيبهم إجمالًا ، يفصلها قوله تعالى :

١٢ ـ (لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ) :

والمعنى : إنهم لكاذبون فى وعودهم ضالُّون مُضِلُّون فى أقوالهم ، والله لئن أخرج هؤلاء اليهود من بلدهم، وأجلوا عن ديارهم لا يخرج المنافقون معهم ، ولا يأبهون بهم ، ولئن قوتلوا لا يكونون فى نصرتهم ، ولا يهتمون بما يجرى عليهم أو يقع فيهم من قتل أو هلاك وتشريد ، ولئن خرج المنافقون لنصرهم أو قاموا على سبيل الفرض والتقدير لتكونن عاقبتهم الهزيمة ، وليولن الأدبار فارين راجعين ، وقد أعطوا ظهورهم للمؤمنين إعمالًا فى الفرار ، وإمعانًا فى الهروب ثم لا ينصرون أى : ثم لا يكون هناك نصر لليهود ولا تنفعهم وعود المنافقين ، ويهلكهم الله ، أو ثم لا يكون هناك نصر للمنافقين ولا إدراك لغاياتهم السيئة ، وخططهم الفاسدة ، ويفتضح أمرهم، وينكشف كيدهم فينالون جزاءهم .

وقد كان الأمر كما أخبر القرآن، ذلك إذ أرسل عبد الله بن أبى رأس النفاق وأعوانه إلى بنى النضير سرًّا يؤلبونهم ويغرونهم بالتمرد والعصيان، ويعدونهم بالنصر لهم، والوقوف معهم، وكان إخبار القرآن بذلك قبل وقوعه حجة بينة على صدق النبوة، وإعجاز القرآن.

١٣ـ (لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ):

تؤكد هذه الآية عدم نصر هؤلاء المتآمرين من المنافقين واليهود بتقرير أن المؤمنين أشد تخويفًا لهم من الله، يرهبونهم، ولا يستطيعون لقاءهم.

والمعنى: لأنتم أيها المؤمنون أشد وأقوى تخويفًا وترويعًا فى صدور هؤلاء من الله الذى يظهرون لكم أنهم يخافونه، ويرهبون قوته، فهم يغلفون خوفهم منكم فى الخوف منه على طريقتهم فى النفاق.

ذلك السلوك المشين من الخوف منكم أشد من الخوف من الله بسبب أنهم سفهاء العقول لا يفهمون الأمور على حقيقتها، ولا يصلون فى الفهم إلى إدراك عظمة الله وجبروته، وقوته على خلقه حتى تكون خشيته منهم فوق كل خشية، وسلطانه أعلى من كل سلطان.

(لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧))

المفـردات :

(مُحَصَّنَةٍ) : ممنوعة محاطة بالأسوار ضربت عليها الخنادق والدروب .

(بَأْسُهُمْ) : شجاعتهم وقوتهم .

(جَمِيعًا) : مجتمعين ذوى مودة وألفة .

(شَتَّى) : متقطعة متفرقة .

(وَبَالَ أَمْرِهِمْ) : سوء عاقبة كفرهم .

(عَاقِبَتَهُمَا) : نهايتهما وآخر أمرهما .

التفسـير

١٤ ـ (لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ) :

تصوير آخر لجبنهم وشدة خوفهم من المؤمنين ، والرهبة التى تملأ قلوبهم وتمنعهم أن يواجهوهم بالعداوة أو يبارزوهم فى القتال .

والمعنى : لا يقوى هؤلاء اليهود أو المنافقون على مواجهتكم ، ولا يجرأون على مبارزتكم والإصحار[1] إليكم مجتمعين جميعًا ومتفقين فى موطن من المواطن إلَّا فى قرًى مسوَّرة بالأسوار محاطة بالدروب والخنادق التى ترد هجوم العدو ، وتحدّ غاراته ، أو من وراء الجدر التى يتحصنون خلفها ، ويمتنعون بها وذلك من جبنهم وشدة خوفهم مع قوتهم وحدَّة شكيمتهم وهم فيما بينهم يظهرون بمظهر التآلف والتواد بما يفهم أنهم متفقون متعاونون ، وقلوبهم متفرقة متقاطعة . ذلك الخلق فيهم ناشئ من جهلهم وأنهم قوم لا يفهمون آثار الفرقة ، ولا عاقبة الاختلاف والتمزق .

والتعقيب فى هذه الآية بـ (لَا يَعْقِلُونَ) ، وفى الآية السابقة بـ (لَا يَفْقَهُونَ) للإشارة إلى أن إدراك آثار الفرقة والتشتت ممَّا يعلم بمجرد العقل والتمييز ، أما معرفة الله تعالى ، واستشعار عظمته وسطوته واسترهاب خشيته فمما يحتاج بعد العقل إلى فقه وفهم .

---

(١) أصحر : برز فى الصحراء .

١٥، ١٦ ـ (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ) :

تتضمن هاتان الآيتان مثلين ـ مثلًا للمشركين فى نهايتهم ، ومثلًا للمنافقين فى وعودهم لليهود . فأما الأول فقوله ـ تعالى ـ : (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...) الآية .

والمعنى : مثل مشركى مكة فى كفرهم وعنادهم وما انتهى إليه أمرهم من القتل والفتح والإذلال والإهلاك كمثل الأمم السابقة عليهم القريبة العهد منهم خاصموا رسلهم ، وعادوا أنبياءهم ، وعارضوا دعواتهم فنالوا سوء جزائهم وذاقوا وبال عصيانهم ، ولقوا النكال الشديد والهوان البليغ فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب موجع ، مفرق فى الألم لا يقادر قدره .

والمثل الثانى فى قوله ـ تعالى ـ : (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ ...) الآية .

والمعنى : مثل المنافقين فى وعودهم لليهود ، وإغرائهم لهم بالتمرد وعصيان المؤمنين ، ومعارضتهم ثم تخلفهم عنهم كمثل الشيطان إذ يوسوس للإنسان بالشر ، ويزين له المعصية ويحبب إليه الفسوق والكفر ، ولا يزال به حتى يقع فيما يريده منه فإذا سقط ابتعد عنه ، وتبرأ منه ومن فعله ، وظهر بمظهر الورع الخائف من الله النادم على عصيانه الذى يخاف عذابه ويرجو ثوابه ، أو يقول ذلك فى الآخرة ، وحمل الشيطان على الجنس هو الأنسب .

وما ذهب إليه بعض المفسرين من أن المراد بالإنسان أبو جهل والحوار الذى جرى يوم بدر من قوله ـ تعالى ـ على لسان الكفر : « لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ »[١] ، وقوله ـ تعالى ـ على لسان إبليس : « إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ »[٢] . فهذا تخصيص لا ينهض عليه دليل ، ولا يعين عليه النص .

١٧ ـ (فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ) :

أى : فكان عاقبة الشيطان والفريقين اللذين أغراهما من اليهود والمنافقين أنهم جميعًا إلى النار وفى النار خالدين مخلدين فيها أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وذلك الجزاء نهاية كل ظالم ، وعاقبة كل طاغية متجاوز لحدود الله ، خارج عن طاعته « وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا » .

(١ ، ٢) سورة الأنفال من الآية : ٤٨

(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾)

المفردات :

(لِغَدٍ) : أصله غَدْو بوزْنِ فعل حذف آخره ، وهو اليوم الذى يأتى بعد يومك على أثره ، ثم توسعوا فيه حتى أُطلق على البعيد المترقب ، والمراد يوم القيامة .

(نَسُواْ اللَّهَ) : انصرفوا عن طاعته وغفلوا عن ذكره .

(فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ) : صرفهم عن العمل بما فيه نفعها ونجاتها .

(خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا) : متطامنًا متشققًا ، وهى من قبيل التمثيل .

التفسير

١٨ - (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) :

عرضت الآيات السابقة على هذه الآيات لأحوال المؤمنين وفصّلت طبقاتهم وما شاع فى أخلاق كل طبقة وغلب على سلوكها وما اتسمت به من الفضائل والمكارم وصدق الإيمان وسخاء النفس والإيثار والتحاب فى الخير والنصح فى الدين ، كما عرضت لقبائح النفاق ،

وسفه المنافقين ، وأسلوبهم فى الكذب والمصانعة ، وإثارة الفتن ، وإذكاء التفرقة والخلاف ، وكشفت حقيقتهم ، وفضحت جبنهم ورهبتهم من المسلمين ، وضربت لذلك الأمثال التى تحذر سوء العاقبة وقبح المآل .

ثم خلصت الآيات بعد ذلك للمؤمنين تناديهم فى رفق ، وتدعوهم فى تلطف وإشفاق إلى الاستدامة فى الطاعة والعمل ليوم عظيم ، وغد قريب يقوم فيه الناس لرب العالمين حتى تسلم لهم راحة الدنيا وثواب الآخرة .

والمعنى : يا أيها الذين آثروا الإيمان وتمكنت العقيدة من نفوسهم فطهرتها من الشرك والنفاق ، ووجهتها إلى صدق الطاعة وإخلاص العبادة داوموا هذا العمل وامضوا فيه وأكثروا منه ليوم عظيم وغد قريب يجد المرء فيه ما قدمت يداه ، ويلاق جزاءه عند الله ، ولتنظر نفسٌ أية نفس ما تدخره لغد وما تعدّه لهذا اليوم الذى تجد فيه كل نفس ما قدمت وأخرت ، وما أسرّت وأعلنت وإنه لقريب . قال قتادة : « إن ربكم قرّب الساعة حتى جعلها كغد » . فاتقوا الله يا معشر المؤمنين واعملوا فى طاعته لهذا اليوم العظيم الأهوال ، أو كما اتقيتم الله فى أوامره وطاعته اتقوا الله فى محارمه ونواهيه ، فلا تعصوه فيما أمركم ، ولا يراكم حيث نهاكم لتجمعوا طرف التقوى من المأمورات والمنهيات وتكون لكم عند الله أعظم الدرجات ، إن الله محيطٌ بكل أعمالكم بصيرٌ بجميع أحوالكم وأقوالكم يحصيها لكم ، ويجزل عليها جزاءكم .

وعبّر عن يوم القيامة بغد للتنبيه إلى شدة قربه وإثارة الخوف من هوله وبأسه ، ولدنوّ الغد من أمسه ، أو أن الدنيا كيوم والآخرة غده . ونكره لتهويله وتفخيمه كما نكر كلمة نفس للعموم والتنبيه إلى أنه لا ينبغى أن تغفل الأنفس عن التفكر لغدها والعمل لآخرتها ، وفيه حث على النظر والاعتبار ، وتعبير بالترك والغفلة المسيطرة على أكثر النفوس .

١٩ - (وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) :

تفريع على الآية قبلها واسترسال فى غرضها أى ، لا تغفلوا عن العمل بطاعة الله ، ولا تكونوا كالذين تركوا أداء حقه وناموا عن عبادته وذكره فصرفهم عن العمل بما فيه سلامة نفوسهم ونفعها ، وحرمهم حظوظهم من الخير والثواب ، أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم

هم الفاسقون الخارجون من طاعة الله إلى معصيته ، المتناهون فى الفسوق ، المستحقون للعقاب الجسيم فى دار الجحيم .

٢٠ - (لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) :

المعنى : إذا تقرر أن المؤمنين المتقين الذين يداومون على الطاعة ويخلصون العبادة لهم الجنة ، وأن المشركين والمنافقين والذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم لهم دار الجحيم ، فإن هذه الآية توضح هذا المعنى وتبرزه نصًا صريحًا وحكمًا صحيحًا ، أى : لا يستوى أهل النار والملازمون لها الذين انخرطوا فى الملذات ، وانهمكوا فى المعاصى ، وسبحوا فى مهاوى الشرك ، ومفاوز الضلال والكفر ، ونسوا الله وتجاوزوا حدوده - لا يستوى هؤلاء - وأصحاب الجنة الذين وقفوا أنفسهم على العمل لها ، وقرنوا سلوكهم بالطاعة وحياتهم بالحلال الطيب - إن أصحاب الجنة الذين هذه أعمالهم وهذا سلوكهم هم الفائزون بكل المطالب ، الجديرون بكل الرغائب الناجون من كل المثالب والمعايب .

٢١ - (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) :

هذه تعجيب من حال من لا يهتدى بالقرآن ولا يستجيب لهديه ، وتنبيه إلى أنه منار هداية ، ورائد طاعة ، ومنهل ظمأ بما ينطوى عليه من فنون القوارع ، وضروب المخاوف ، ودروب الرغائب ، ومناهل العرفان بحيث لو أنزل على جبل أصم من الجبالِ الضخمة العاتية لرأيته - مع كونه مثلًا فى القسوة ، علمًا فى الرسوخ والثبات - متهاويًا متداعيًا ومتشققًا ، متصدعاً من قوة خشية الله وشدة جبروته لعلو شأن القرآن وبلاغة تأثيره بالزواجر والقوارع . والمراد توبيخ الإنسان وتعنيفه على قسوة قلبه وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن أو سماعه وتدبر ما فيه وتلك الأمثال التى ذكرناها فى هذه السورة وفى غيرها نضربها للناس ونوردها لهم متعددة المقاصد مختلفة المضامين لعلهم يتفكرون فى معانيها ويدركون مراميها فينعكس ذلك على سلوكهم وأعمالهم .

(هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾)

المفردات :

(الْغَيْبِ) : ما غاب عن الحس وجهلت معرفته .

(الشَّهَادَةِ) : ما حضر وشوهد .

(الْقُدُّوسُ) : البليغ فى النزاهة عمّا يوجب نقصًا .

(الْمُؤْمِنُ) : واهب الأمن .

(الْمُهَيْمِنُ) : المسيطر الحافظ لكل شىء ، الرقيب .

التفسير

٢٢ ـ (هُوَ اللهُ الَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَـٰنُ الرَّحِيمُ) :

تختم سورة الحشر بذكر طائفة من أسماء الله تعالى ، واختصاص هذه الأسماء بالذّكر من بين أسماء الله الحسنى سر من أسرار القرآن الكريم ، وغمط من إعجازه ، ولعل لها خصائص تعظم بركتها ويعم نفعها . وحسب القارئ أن يقرأها ذكرًا يرطب لسانه وعظة تزكى نفسه .

والمعنى : هو الله وحده لا يشاركه غيره ولَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ المحيط بعلم جميع الأشياء ما غاب منها عن الحس وجهلت معرفته وما حضر وشوهد وتحققت معرفته ، لا يغيب عنه من ذلك شئ ولا يعزب عن علمه قريب أو بعيد ، ولا يحرم فضله عاجز ولا قادر ، هو الرحمن الذى تنتظم رحمته فى الدنيا جميع المخلوقات ، الرحيم الذى يختص برحمته فى الآخرة من يشاء من أهل الطاعات الصالحات .

وتقدم الغيب على الشهادة فى الآية لتقدمه فى الوجود وتعلق العلم القديم به ، ولأن علم الغيب مما يدق ويخفى فتقديمه فى الإخبار أبعث للتنبيه والاعتبار .

٢٣ ـ (هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) :

تكرر بدء الآية بمثل البدء السابق : (هُوَ اللهُ الَّذِى لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) لإبراز العناية والاهتمام بالتوحيد ، وتلذذًا بذكر الله ، وليكون لفظ الجلالة هو الأساس والمدخل لبناء الأسماء الأخرى عليه .

والمعنى : هو الله وحده لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ السيد المالك لجميع الأشياء ملكًا حقيقيًّا يتصرف فيها على وجه ليس لأحد منعه منه أو معارضته فيه . القدوس الطاهر من كل عيب وآفة ونقص ، المنزه عن القبائح ، الغنى عن الشريك والولد ، المبارك الذى تنزل البركات من عنده ، السلام من كل سوء وعيب ، الذى ترجى عنده السلامة من كل بلاء ، المؤمن الذى يهب الأمن لكل خائف ويوفر الاطمئنان لكل مرهوب مقهور ، ولا يظلم عنده أحد ، المصدق لنفسه ورسله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فيما بلغوه عنه ـ جلَّ وعلَا ـ المهيمن الرقيب الحافظ لكل شيء المسيطر الذى لا يعلو عليه أحد ، العزيز القادر الذى لا يُقْهر ، المنيع الذى لا يرام ولا يمتنع عليه مرام وليس كمثله شيء ، الجبار العظيم الشأن فى الملك والسلطان الذى يذل له كل شيء ولا يستحق أن يوصف بهذا الوصف على الإطلاق إلَّا الله ـ تعالى ـ فإذا أطلق على غير الله كان فى غير موضعه ، وكان ذمًّا . المتكبر المستحق لصفات التعظيم ، المتعالى عن كل نقص ورذيلة .

(سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) : أى تنزيهاً له - جَلّ شأنه - عن إشراكهم بعد تعداد صفاته التى لايشاركه فيها أحدٌ أبدًا .

٢٤ - (هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

المعنى : هو الله الخالق ، أى : المقدر للأشياء بحكمته ، المحدث لها على إرادته ، البارئ الموجد لها بريئة من التفاوت فلا ترى فيها اختلافًا ولاعدم تناسب ، أو مميزًا بعضها عن بعض باختلاف الأشكال ، المصور الموجد لصورها وأشكالها كما أراد الله وحده . هذه الأسماء الحسنى التى اختص بها ذاته ووضح بها صفاته ما ذكر منها وما لم يذكر لدلالتها على المعانى الحسنة والفضائل العالية ، والكمال المطلق - يسبح لله بهذه الأسماء ويذكره بترديدها جميع ما فى السموات والأرض من خلائق وأجرام بحاله أو بمقاله - وإن من شىء إلّا يسبح بحمده - وكل قدعرف صلاته وتسبيحه وهو العزيز فى ملكه ، الحكيم فى فعله ، المتعظم لجميع الفضائل والكمالات ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

سـورة الممتحنـة

مدنية وآياتها ثلاث عشرة آية

وهي إحدى سور ثلاث بدأت بقوله – تعالى – : « يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » المائدة والحجرات وهذه السورة ، والصحيح المشهور فى ضبطها أنها بفتح الحاء صفة للمرأة التى نزلت بسببها ، وقد تكسر الحاء على أنها صفة للسورة ، كما قيل فى سورة براءة : الفاضحة .

مناسبتها لمـا قبلهـا :

وترتبط بالسورة قبلها بتقارب الهدف ، وتلاؤم الغرض ، فقد نعت السورة قبلها على المنافقين سلوكهم المهين وتظاهرهم لليهود ، وإخوانهم الكافرين ، وجاء فى هذه السورة نهى المؤمنين من اتخاذ الكفار أعداء الله وأعدائهم أولياء يلقون إليهم بالمودة ، على أن مضمون سورة الممتحنة يعتبر تقريرًا وتأكيدًا لمـا جاء فى سورة الحشر قبلها حتى كأنها من تمامها ، ولهذا استحقت أن توضع بين سور التسابيح أو ذوات سبح مع اختلاف مفتتحها .

مقاصد هـذه السورة الكريمـة :

بدأت سورة الممتحنة بنهى المؤمنين عن اتخاذ أعداء الله وأعدائهم من الكفار والمشركين أولياء يُصَافونهم ، ويصلونهم بالمودة والتعاون ، كأن ذلك ارتباط بما سبق من التعجب من أحوال المنافقين وموالاتهم لليهود مما يشير إلى الربط بين السورتين ، وهى إذ تنهى المؤمنين عن ذلك تنبه إلى كفر المشركين والمنافقين بما جاء به الرسول وكيدهم له وللمؤمنين ، ليلجئوهم إلى الخروج عن وطنهم ، ويتابعون إيذاءهم لمجرد أنهم آمنوا حملًا لهم على الخروج وهذا سلوك يقتضى الحذر منهم ومقاطعتهم وذلك لأنه إن كان الإيمان عن صدق وعقيدة ورغبة صادقة فى الانتصار للدعوة ونصرة الرسول ، فإن هؤلاء الأعداء لاخير فيهم ولايجدى فيهم معروف ، ولا يبقون على مودة إلا ضعفًا وخديعة فإن أمكنتهم الأيام من المؤمنين طالت أيديهم بالإيذاء ، وبسطوها بالسوء مع ترقب أن يرجع المؤمنون عن دينهم ، ورغبتهم أن يعودوا كافرين .

وتقرر الآيات أن القرابات وصلات البنوة وغيرها لا تنفع مع كفر ، ويوم القيامة يفصل بين المؤمنين والكافرين يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ، ولن ينفع المؤمن فيه إلَّا عمله: (لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ) .

ثم تلمح الآيات إلى أن اختلاف الدين يقطع الأنساب ويميت الصلات بين الأهل والأقارب ، وتسوق طرفًا من أخبار إبراهيم — عليه السلام — مع قومه وبراءته من أبيه ليكون ذلك هديًا لكل مؤمن وحافزًا له على الاقتداء بأبيه إبراهيم (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَاهِيمَ ...) إلخ .

ثم تخصص الآيات النهى بالذين تمادوا فى العناد ، وأمعنوا فى الفساد ، وتورطوا فى موالاة الإيذاء من المشركين ، فأما الذين سالموا وأمسكوا عن الشر ، وحبسوا أذاهم عن المؤمنين فلا بأس من التعامل معهم ، والعدل فى معاملتهم (لَا يَنْهَىٰكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ ...) إلخ .

ثم أشارت الآيات إلى قصة امتحان المؤمنات اللائى جئن إلى الرسول مهاجرات من مكة إلى المدينة للتأكد من صدق إيمانهن ، وحسن قصدهن . ودعت إلى التمسك بهن والإحسان إليهن ، والتعايش معهن بالنكاح حتى ظهر صدقهن ، ثم تناولت بيعة النساء للرسول ، ومشروعيتها وإمضاءها والدعاء لهن .

وختمت السورة بمثل ما بدئت به من النهى عن موالاة المشركين المغضوب عليهم ، واتخاذهم أولياء ، فإن الله قد غضب عليهم حتى تمكن فيهم اليأس ، وانقطع الرجاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾)

المفردات :

(أَوْلِيَآءَ) : أصدقاء أحباء جمع ولى وهو الصديق .

(بِالْمَوَدَّةِ) : بالمحبة والإخلاص .

(يَثْقَفُوكُمْ) : يتمكنوا منكم ويظفروا بكم .

(يَبْسُطُوٓا۟) : يمدوا ويسرفوا فى مساءتكم .

(يَفْصِلُ) : يقضى ويحكم .

التفسير

١ - (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...) الآية .

نزلت هذه الآية فى حاطب بن أبى بلتعة - وذلك أنه لمَّا تجهز رسول الله ﷺ لفتح مكة كتب حاطب إلى أهلها أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم ، وأرسله مع امرأة تدعى سارَّة مولاة بنى المطلب ، فنزل جبريل - عليه السلام - إلى الرسول بخبر ذلك ، فبعث رسول الله ﷺ عليًّا وعمارًا وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد . وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها فإن أبتْ فاضربوا عنقها . فأدركوها ثمة فجحدت فسل على سيفه فأخرجته من عقاصها - واستحضر رسول الله ﷺ حاطبًا وقال له: ماحملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ما كفرت مذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ، ولكنى كنت امرأ ملصقًا فى قريش وليس لى فيهم من يحمى أهلى وأردت أن آخذ عندهم يدًا ، وقد علمت أن كتابى هذا لن يغنى عنهم شيئًا . فصدقه رسول الله ﷺ ، وقبل عذره . فقال عمر - رضى الله عنه - : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال ﷺ : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. ففاضت عينا عمر - رضى الله عنه - فنزلت .

وروى أن رسول الله ﷺ أمن جميع الناس يوم فتح مكة إلَّا أربعة :هذه المرأة أحدهم .

والمعنى : يا أيها الذين شرُفوا بالإيمان ورفعوا مكانتهم به ، وعزُّوا بأعماله الصالحة ، وسلوكه الطيِّب : لا تركنوا إلى هؤلاء الراكسين فى الكفر المنغمسين فى الرذائل وقبح السلوك أعدائى وأعدائكم ولا تطمئنوا إليهم ، وتصافوهم فتتخذوهم أولياء وأصحابا تصلون إليهم بالمحبة وتتقربون منهم وتلقون إليهم أسرار النبى وأخبار المؤمنين ، وهم قد كفروا بدينكم ، وعارضوا دعوة رسولكم وأنكروا ما نزل عليه من أخبار الوحى وآيات القرآن، وجاوزوا ذلك إلى الكيد لكم وإيذائكم والإصرار على إخراج الرسول وإخراجكم من وطنكم وإجلائكم عن بلدكم ؛ لأنكم آمنتم بربكم ، واتبعتم هدى نبيكم وتركتم ضلالهم وجهلهم ، وقوله تعالى : (إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى) مرتب على قوله - تعالى - : (لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ) .

والمعنى : إن كان خروجكم عن صدق إيمان ورسوخ عقيدة ورغبة فى دين الله وابتغاء مرضاته فلا تتخذوا أعدائى وأعداءكم أولياء تفضون إليهم بالمحبة ، وتهمسون لهم بأسراركم وأخباركم تظنون أنها خافية وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيّان فى علمى ، وأنا مطلع على ما أخفيتم وأظهرتم ، ومن يفعل هذا الفعل من موالاة المشركين ، وإلقاء الأسرار إليهم فقد أخطأ طريق الحق والصواب ، وفى الآية إشارات منها :

١ - تقديم الرسول على المؤمنين فى الإخراج للإشارة إلى أن فى إخراج الرسول قضاء على الإسلام .

٢ - من كان عدوًّا للرسول فهو عدوٌّ لجماعة المسلمين .

٣ - تقديم الإخفاء على الإعلان فى العلم مشعر بإحاطة علم الله وكمال قدرته .

٤ - أن صدق الإيمان يتنافى مع قبح العمل ، والمعصية لا تقدح فى أصل الإيمان .

٢ - (إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ) :

تمضى الآيات فى التحذير من موالاة المشركين والتودد إليهم فتكشف خبث طويتهم ودخيلة كيدهم وعداوتهم .

والمعنى : لو يتمكن هؤلاء المشركون منكم ويظفرون بكم تتجلى عداوتهم ويفضح غدرهم وخيانتهم ويظهرون على حقيقتهم ويرتبون على ذلك أحكامهم ويشبعون غيظهم وتمتد أيديهم وتطول ألسنتهم إليكم بالإيذاء ضربا وشتما وتعذيبا وقتلا ، وكل ما يقدرون على عمله مما يسيئكم ، ويوقع العذاب بكم يفعلونه معكم ، وتمنوا لو ترتدون كفارا عن دينكم ، فهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين من الشتم والقتل والتمزيق . وردكم كفارا أسبق المضار عندهم ، وأول أمانيهم .

٣ـ(لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) :

كان اعتذار حاطب بن أبى بلتعة عن عمله الإشفاق على أهله وقرابته فى مكة فعقبت هذه الآية ببيان أن الأرحام والقرابات لا تعود بالنفع على أهلها إذا لم تعصمها عقيدة ، ويوثقها دين.

والمعنى : لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون من أجلهم أعداءكم إشفاقا على الرحم والولد وتلقون إلى هؤلاء الأعداء بالمودة لأجلهم مراعاة لهم وحبًّا فيهم فإن الكفر يقطع الأنساب ، ويورث العداوة بين الأهل والأقارب والأصحاب ، فإذا كان يوم القيامة يوم الفصل يقضى بينكم وبين أقاربكم وأولادكم . ويحكم بينكم يوم يفرُّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه ، والله مطلع وبصير بكل ما تعملونه فيجازيكم على أعمالكم .

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾)

المفـردات :

(أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) : قدوة طيبة وخصلة حميدة .

(أَنَبْنَا) : رجعنا .

(فِتْنَةً) : معذبين بهم .

(يَتَوَلَّ) : يُعرض .

التفسـير

٤ ـ (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ...) الآية إلى قوله : (وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) :

تسوق هذه الآية طرفًا من أخبار سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع أبيه وقومه تأكيدًا لأمر الإنكار والتخطئة فى موالاة الكفار ؛ ليعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله من أوثق عرى الإيمان وأقدس روابط المودة فلا ينبغى أن يغفل عنهما .

والمعنى : لقد كان لكم أيها المؤمنون فيما تعلمون من أخبار أبيكم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأصحابه الذين آمنوا به وكانوا معه وماتقرءُونه عنه وعنهم قدوة صالحة وخصلة حميدة من خصال الخير إذ قالوا لقومهم الذين كفروا بالدعوة ، وأنكروا الرسالة وآذوا رسول الله وخليله إبراهيم ـ قالوا لهم ـ : إنا برءاء منكم قاطعون لمودتكم وقرابتكم، بعيدون عن معايشتكم ومعاملاتكم منكرون لكم ولِما تعبدون من دون الله من الأصنام والتماثيل ـ كفرنا بكم قرابة وأهلًا ، وكفرنا بآلهتكم ومعبوداتكم واستحكمت بيننا وبينكم العداوة والبغضاء . وبدت القطيعة والجفاء ، وكان هذا شأننا معكم ودأبنا فى معاملتكم لا نتركه ولا نحيد عنه ، فسيروا على سيرة أبيكم إبراهيم ، والتزموا منهجه فى معاداة أعدائكم ، وخذوا منه القدوة الحسنة . والأسوة الصالحة ولا تستغفروا لهؤلاء الكفار ، واعلموا أن استغفار إبراهيم لأبيه ما كان إلَّا عن عدة وعده إيَّاها فوفَّى له بها طمعًا فى أن يسلم ورجاء أن يهتدى . فلمَّا تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وأعلن أنه لا يملك له من الله شيئا يجلب له نفعا أو يدفع عنه ضرًا .

(رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) : يحتمل أن يكون من تمام ما نقل عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ومن معه من جملة التأسى ، وأن علينا أن نقتدى به دائما فى التوكل على الله ، والإنابة إليه وتفويض المصير والأمور كلها لله .

وتقديم المجرور لإفادة قصر التوكل والإنابة إلى الله على الله وحده .

ويحتمل أن يكون كلاما مستأنفا ، لبيان مجاهدتهم لأعداء الله والالتجاء إليه فى جميع أمورهم لاسيما فى مدافعة الكفرة ، وكفاية شرورهم كما ينطق بذلك قوله ـ تعالى ـ : (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً ...) الآية .

٥ ـ (رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى :نسألك يا ربنا وندعوك ضارعين ألّا تسلط علينا الذين كفروا فيفتنونا بإغراءات أو عذاب لانطيقه يقهرنا ، واغفر لنا ما فرط منا ، ربنا إنك أنت العزيز الغالب الذى لا يذل من التجأ إليه ، ولا يخيب رجاء من توكل عليه ، الحكيم الذى يضع الأمور فى مواقعها ، ولا يفعل إلّا عن حكمة بالغة .

٦ ـ (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) :

أعيد طلب التأسى للمبالغة فى الحث على الاقتداء به ـ عليه السلام ـ والتأسى بمناقبه وبيان أنه السلوك المستقيم ، ولذلك صدر بالقسم وذيل بقوله: (لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) بدل (لكم) للإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك هذا الاقتداء ، وأن ترك الاقتداء بهم من مخايل عدم الإيمان بهما ـ كما ينبئ عن ذلك قوله ـ تعالى ـ : (وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) أى : ومن يعرض عن الاقتداء والتأسى بهم فقد باعد بينه وبين الله ، وحرم نفسه فضله ورحمته والله هو الغنى عن كل شىء ، المحمود بكل لسان ، والله أعلم .

* (عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾)

المفـــردات :

(وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ) : وتقضوا إليهم بالقسط والعدل .

(الْمُقْسِطِينَ) : العادلين .

(وَظَاهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ) : وعاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم .

التفســـير

٧ ـ (عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ):

بعد أن أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار فى الآيات السابقة وامتثلوا الأمر وتشددوا فى عداوة ومقاطعة آبائهم وأبنائهم وجميع أقربائهم من المشركين ، وظهر منهم الجد فيه ، والصدق والصبر والرغبة فى وصل ما انقطع بينهم وبين أقربائهم لكفرهم رحمهم ووعدهم بتيسير ما تمنّوه ، وتذليل ما رغبوا فيه فقال ـ سبحانه ـ :

(عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً) : هذا وعد من الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم من الكفار مودة بأن يهديهم للإيمان ويوفقهم إليه فيكونوا لكم أولياء وتوجد المحبة بعد البغضة ، والألفة بعد الفرقة ، والله تام القدرة على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة فيؤلف بين القلوب المتعادية القاسية لتصبح مجتمعة متفقة . قال ـ تعالى ـ : « وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »[1] .

فلما يسّر الله فتح مكة أظفرهم بأمنيتهم فأسلم قومهم وتمّ بينهم من التحابّ والتصافى ما تم ويدخل فى ذلك أبو سفيان وأحزابه من مسلمى الفتح .

(وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى : والله واسع المغفرة يغفر للكافرين كفرهم إذا أسلموا وتابوا وأنابوا إلى ربهم والله كثير الرحمة بعباده المخلصين ، روى ابن أبى حاتم أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان صخر بن حرب على بعض اليمن فلمّا قُبض رسول الله ﷺ ، أقبل فلقى ذا الخِمار مرتدا فقاتله ، فكان أوّل من قاتل فى الرّدة وجاهد عن الدين ، قال ابن شهاب : وهو ممّن أنزل الله فيه : (عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً) .

٨ ـ (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) :

أى : لا ينهاكم الله عن الذين لم يُقاتلوكم فى الدِّين من الكفار ولم يُخرجوكم من دياركم أن تُحسنوا إليهم وتكرموهم وتمنحوهم صِلَتكم وتعدلوا بينهم ، إنَّ الله يُحب أهل البر ، والتّواصل والحق والعدل . جاء فى الحديث الصحيح : (المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش : الذين يعدلون فى حُكمهم وأهاليهم وما وَلُوا) ، وأخرج البخارى وغيره عن أسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ قالت : (أتتنى أُمّى راغبة ـ وهى مشركة فى عهد قريش ، إذ عاهدوا رسول الله ﷺ فسألت رسول الله أأصلها ؟ فأنزل الله ـ تعالى ـ :

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٣

(لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ ...) الآية ، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (نعم صِلِي أُمَّك) ، وقال الحسن : نزلت الآية فى خُزاعة وغيرها من قبائل العرب كانوا صالحوا رسول الله ﷺ على ألّا يقاتلوه وألّا يعينوا عليه ، وقال قرة الهمدانى : نزلت فى قوم من بنى هاشم منهم العباس ، وعن عبد الله بن الزبير : نزلت فى النساء والصبيان من الكفرة .

والأكثرون على أنها نزلت فى كفرة اتصفوا بما فى الآية أى : (لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ) .

٩ ـ (إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) :

أى : إنما ينهاكم الله عن الذين حاربوكم فى الدين ليصدُّوكم عنه وأجبروكم على الخروج من دياركم وعاونوا على إخراجكم كمشركى مكة ، فإن بعضهم سعوا فى إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا من أخرجوهم، إنما ينهاكم الله عن موالاتهم وأن تتخذوهم أنصارا لكم وأعوانا ويأمركم بمعاداتهم ، ثم أكَّد الوعيد على موالاتهم فقال : (وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) أى : ومن يتخذوهم أولياء لهم وأعوانًا فأُولئك الظالمون المتجاوزون الحد لوضعهم الولاية موضع العداوة ، أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب ، وفى أسلوب القصر من المبالغة ما لا يخفى .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١))

المفردات :

(فَامْتَحِنُوهُنَّ) : فاختبروهن وابتلوهن .

(أُجُورَهُنَّ) : مهورهن .

(وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) العصم : جمع عصمة ، وهو مايعتصم به من عقد وسبب .

(فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ) : سبقكم .

(فَعَاقَبْتُمْ) : فكانت العقبى والنصر والغلبة لكم .

التفسير

١٠- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ

مَآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) :

(يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا جَآءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ) .

تقدم فى سورة الفتح ذكر صلح الحديبية الذى وقع بين رسول الله وبين كفار قريش فكان فيه : على ألا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا ، وفى رواية . على ألّا يأتيك منا أحدٌ وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا . وهذا قول عُروة والضحاك وغيرهما .

وفى هذه الآية أمر الله — عز وجل — عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات من دار الشرك أن يختبروهن ليعلموا صدق إيمانهن ومبلغ يقينهن والله أعلم بذلك فإنه — سبحانه — هو المطلع على ما فى قلوبهن ، فإن علموهن مؤمنات فلا يردوهن إلى أزواجهن الكفار لئلا يفتنوهن عن دينهن .

روِى أنّ أم كلثوم بنت عُقبة بن أبى معيط كانت أول المهاجرات فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله فكلّماه فيها أن يردها إليهما فنقض الله العهد بينه وبين المشركين فى النساء خاصة فمنعهم الله أن يردّوهن إلى المشركين وأنزل الله آية الامتحان .

قال ابن جرير : سئل ابن عباس : كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ فقال : كان يمتحنهن بأن يقلن : بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت عن أرض إلى أرض وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلّا حبًّا لله ولرسوله ، ثم رواه من وجه آخر وذكر فيه أن الذى كان يحلفهن — عن أمر رسول الله له — عمر بن الخطاب .

(لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) : تعليل للنهى عن إرجاعهن إليهم .

والمعنى : لا المؤمنات حلال للكافرين ولا الكافرون حلال للمؤمنات ، الجملة الأُولى : (لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ) لبيان الفرقة الثابتة وتحقق زوال النكاح الأول ، والثانية : (وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ) لبيان امتناع ما يستأنف ويستقبل من النكاح ، ويجوز أن يكون ذلك تكريرا للتأكيد ، والمبالغة فى الحرمة وقطع العلاقة .

قال ابن كثير : وهذه الآية هي التى حرّمت المسلمات على المشركين وقد كان جائزا فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ، ولهذا كان حال أبى العاص بن الربيع زوج ابنة النبي ﷺ زينب – رضى الله عنها – وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع فى الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب فى فدائه بقلادة لها كانت لأُمها خديجة ، فلما رآها الرسول رق لها رقة شديدة وقال للمسلمين : (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا) ، ففعلوا فأطلقه رسول الله على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده وبعثها إلى رسول الله مع زيد بن حارثة – رضى الله عنها – فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر وكانت سنة اثنتين ، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردّها عليه بالنكاح الأوّل ، ولم يُحدث لها صداقا .

(وَآتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ) أى : وأعطوا أزواج المهاجرات من المشركين مثل ما دفعوا إليهن من المهور .

(وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ) أى : ولا حرج عليكم أن تتزوجوا هؤلاء المهاجرات إذا أعطيتموهن صداقهن .

(وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) أى : ولا تتمسكوا بعقد زوجية الكافرات الباقيات فى دار الشرك أو اللاحقات بها ، والمراد نهى المؤمنين أن يكون بينهم وبين الزوجات المشركات الباقيات فى دار الحرب عُلْقة من عُلق الزوجية أصلًا ، قال ابن عباس : من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدّ بها من نسائه (أى لا يعتبرها من نسائه) لأن اختلاف الدينين والدارين قطعا عصمتها منه ، وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن إبراهيم النخعى أنه قال : نزل قوله – تعالى – : (وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ) فى المرأة من المسلمين تلحق بالمشركين فلا يمسك زوجها بعصمتها .

وتحقيقا لأمر الله بمفارقة الكافرات نقل محمد بن إسحاق عن الزهرى : طلّق عمر لذلك فاطمة بنت أبى أمية بن المغيرة فتزوجها معاوية ، وأم كلثوم الخزاعية فتزوجها أبو جهم .

(وَاسْأَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ) أى : واطلبوا من الكفار ما أنفقتم من صداق على اللاحقات بدار الشرك ، وليطلبوا هم ما أنفقوا على زوجاتهم المهاجرات إلى المسلمين .

(ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ) أى : ذلك الحكم السابق والتشريع الربانى العادل فى صلح الحديبية واستثناء النساء منه والأمر بما سبق ذكره هو حكم الله يفصل به بينكم ويحكم به بين خلقه .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) أى : والله عليم بمصالح عباده حكيم فى تشريعه ، يشرع ما تقتضيه الحكمة ، روى أنه لما نزل هذا الحكم أدى المؤمنون ما أمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن وأبى المشركون أن يردوا شيئا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المؤمنين فنزل قوله تعالى :

١١ - (وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ) :

(وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ) أى : وإن لحق أحد من أزواجكم بالكفار أو فاتكم شىء من مهورهن ولزمكم أداء المهر كما لزم الكفار .

(فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا) أى : فآتوا الذين ذهبت زوجاتهم مثل ما أنفقوا عليهن من صداق وهذا على أن معنى (فَعَاقَبْتُمْ) من العقبة لا من العقاب (وهى فى الأصل : النوبة فى ركوب أحد الرفيقين على دابة لهما والآخر بعده) أى : فجاءت عقبتكم أى : نوبتكم من أداء المهر .

وحمل الآية على هذا المعنى يوافق ما روى عن الزهرى أنه قال : يُعْطَى من لحقت زوجته بالكفار من صداق من لحق بالمسلمين من زوجاتهم !

وعن الزجاج أن معنى (فَعَاقَبْتُمْ) : فغنمتم ، وحقيقته : فأصبتم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم فكأنه قيل : وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار ولم يؤدوا إليكم مهورهن فغنمتم منهم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الغنيمة .

وهذا هو الوجه دون ما سبق ، ولقد كان ﷺ كما روى عن ابن عباس - يعطى المهر الذى ذهبت زوجته من الغنيمة (قبل أن تُخمّس) ولا ينقص من حقه شيئا ، (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ) فإن الإيمان به - عز وجل - يقتضى تقواه والعمل بأحكامه ، والتزام شريعته .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾)

المفـــردات :

(يُبَايِعْنَكَ) : يعاهدنك .

(بِبُهْتَانٍ) : بزور وكذب بإلصاق اللقطاء بالأزواج .

(يَفْتَرِينَهُ) : يختلقنه .

التفســـير

١٢ - (يَٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى : يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات مبايعات لك ومعاهدات على هذه الأمور (عَلَىٰٓ أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا) أى : على ألَّا يشركن بالله شيئا من الأشياء أو شيئا من الإشراك ، (وَلَا يَسْرِقْنَ) أى : ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، فأما إن كان الزوج مقصرا فى نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جرت به عادة أمثالها وإن كان من غير علمه عملًا بحديث هند بنت عتبة وسيأتى ، (وَلَا يَزْنِينَ) ولقد ذكر فى حديث رسول الله عقوبة الزنا بالعذاب الأليم فى نار جهنم ، ولقد روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله فأخذ عليها (أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ ...) الآية - قال : فوضعت يدها على رأسها حياء ، فأعجبه ما رآه منها ، فقالت عائشة : أقرى أيتها المرأة فوالله ما بايعنا إلَّا على هذا . قالت : نعم إذن فبايعها بالآية (ابن كثير) .

(وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ) : وهذا يشمل قتلهم بعد وجودهم كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ،وقتلهم وهم أجنة كما يفعله بعض الجهلة من النساء .

(وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ) قال الفراء : كانت المرأة فى الجاهلية تلتقط المولود فتقول : هذا ولدى منك ،فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن وذلك أن الولد إذا وضعته الأم سقط بين يديها ورجليها .

وفى الكشاف ما يؤيد هذا المعنى .

وحمل الآية على ما ذكر هو الذى ذهب إليه الأكثرون ، وروى ذلك عن ابن عباس وقال بعض الأجلة : معناه لا يأتين ببهتان ،أى : بكذب وزور من قبل أنفسهن ، واليد والرجل كناية عن الذات ؛ لأن معظم الأفعال بهما ، وقيل : البهتان :السحر،وللنساء ميل شديد إليه فنهين عن ذلك وليس بشىء . (وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ) أى : ولا يعصينك فيما تأمرهن به من معروف وتنهاهن عنه من منكر ، والتقييد بالمعروف مع أن رسول الله لا يأمر إلّا به للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق ،ويرد به على من زعم من الجهلة أن طاعة أولى الأمر لازمة مطلقا ،وخص بعضهم هذا المعروف بترك النياحة لما أخرج الإمام أحمد والترمذى وحسنه وابن ماجة وغيرهم عن أم سلمة الأنصارية ؛ قالت امرأة من هذه النسوة : ما هذا المعروف الذى ينبغى لنا ألّا نعصيك فيه ؟ فقال ﷺ : « لَا تَنُحْنَ ... » الحديث ، ونحوه من الأخبار الظاهرة فى تخصيصه بما ذكر كثير ، والحق العموم ، وما ذكر فى الأخبار من باب الاقتصار على بعض أفراد العام لنكتة ، ويشهد للعموم قول ابن عباس وأنس وزيد بن أسلم : هو النوح ، وشق الجيوب ووشم الوجوه ، ووصل الشعر وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها ،وتخصيص الأمور المعدودة بما ذكر فى حقهن لكثرة وقوعها فيما بينهن مع اختصاص بعضها بهن . (فَبَايِعْهُنَّ) أى : فعاهدهن بضمان الثواب على الوفاء بهذه الأشياء ، وتقييد مبايعتهن بما ذكر من مجيئهن لحثهن على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهن إليها (وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ) واطلب لهن المغفرة من الله زيادة على ما فى ضمن المبايعة من ضمان الثواب . (إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) أى : واسع المغفرة عظيم الرحمة فيغفر - عز وجلَّ - لهن ويرحمهن إذا وفين بما بايعن عليه .

وهذه الآية نزلت على ما أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل يوم الفتح ، فبايع رسول الله الرجال على الصفا وعمر - رضى الله عنه - يُبايع النِّساء تحتها عن رسول الله ﷺ وجاء أنَّه - عليه الصلاة والسلام - بايع النساء أيضا بنفسه الكريمة ، أخرج الإمام أحمد والنسائى وابن ماجة والترمذى وصححه وغيرهم عن أُميمة بنت رُقَيْقة قالت : أتيت النبي ﷺ لنبايعه فأخذ علينا ما فى القرآن (أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا) حتى بلغ (وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ) فقال : (فيما استطعن وأطقن) .قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا يا رسول الله ألّا تصافحنا فقال : إنِّى لا أُصافح النساء ، إنما قولي لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة .

والمبايعة وقعت غير مرة ، ووقعت فى مكة بعد الفتح وفى المدينة .

وممن بايعه- عليه الصلاة والسلام - فى مكة هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ففى حديث أسماء بنت يزيد بن السكن : كنت فى النسوة المبايعات وكانت هند بنت عتبة فى النساء فقرأ ﷺ الآية فلما قال : (عَلَىٰٓ أن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا) . قالت هنـــد : وكيف نطمع أن يقبل منَّا ما لم يقبل من الرجال ، يعنى أن هذا بيِّن لزومه ، فلما قال : (وَلَا يَسْرِقْنَ) قالت : والله إنِّى لأُصيب الهنة من مال أبى سفيان لا يُدرى أيحل لى ذلك ، فقال أبو سفيان : ما أصبت من شىء فيما مضى وفيما نجد فهو لك حلال فضحك رسول الله وعرفها فقال لها : (وإنك لهند بنت عتبة) . قالت : نعم فاعف عمَّا سلف يا نبى الله عفا الله عنك ، فقال : (وَلَا يَزْنِينَ) ، فقالت : أو تزنى الحرة ؟ فقال : (وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ) ، فقالت : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا - تعنى ما كان من أمر ابنها حنظلة بن أبى سفيان فإنه قد قتل يوم بدر فضحك عمر حتى استلقى ،وتبسم رسول الله ، وفى رواية أنها قالت : قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد؟فضحك رسول الله فقال : (وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ) ، فقالت : والله إنَّ البهتان لأمر قبيح ولا يأمر الله إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق ، فقال : (وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ) ، فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء ، وكان هذا منها دون غيرها لمكان أم حبيبة - رضى الله عنها - من رسول الله مع أنها حديثة عهد بجاهلية ، ويروى أن أول من بايع من النساء أم سعيد بن معاذ وكبشة بنت رافع مع نسوة أُخرى - رضى الله عنهن -

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾)

التفسير

١٣ ـ (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) :

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين فى آخر هذه السورة كما نهى عنها فى أولها فقال : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ) وهم اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء . (قَدْ يَئِسُواْ مِنَ الْآخِرَةِ) أى : يئسوا من خيرها وثوابها لعنادهم الرسول المنعوت فى كتابهم المؤيد بالآيات البينات والمعجزات الباهرات .

(كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) . قال ابن كثير : ـ فيه قولان ـ :

أحدهما : كما يئس الكفار الأحياء من أقربائهم الذين فى القبور ـ أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ؛ لأنهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا فقد انقطع رجاؤهم فى لقائهم وذلك حسب اعتقادهم وبهذا القول قال ابن عباس ،وقال قتادة : كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا ، وكذا قال الضحاك .

والقول الثانى معناه : كما يئس الكفار الذين هم فى القبور من كل خير ينالهم فى الآخرة فقوله ـ تعالى ـ : (مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) بيان للكفار . قال الأعمش عن أبى الضحى عن ابن مسعود (كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) قال : كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين عقابه واطلع عليه ، وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل وهو اختيار ابن جرير . اهـ ابن كثير بتصرف .

وقال الزمخشرى : روى أن بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود ليصيبوا من ثمارهم فنزل قوله ـ تعالى ـ : (يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ...) الآية .

سـورة الصف
مدنية وآياتها اربع عشرة

اسماء هذه السورة :

وتسمى سورة الحَواريين ، وسورة عيسى - عليه السلام - وهى مدنيّة ، ويدل على ذلك ما أخرجه الحاكم وغيره عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله فتذاكرنا فقلنا : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه فأنزل - سبحانه - : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

قال عبد الله : فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها ،

مناسبتها لما قبلها :

ومناسبتها لما قبلها اشتمالها على الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وفى ذلك تأكيد للنهى عن اتخاذ الكفار أولياء الذى تضمنته السورة السابقة (سورة الممتحنة) .

اهم مقاصد السورة :

تخبر السورة الكريمة فى افتتاحها بأنّ الله - سبحانه - نزهه عمّا لا يليق به كُل ما فى السمٰوات وكُل ما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ، ثم تبين أنه لا يليق بالمؤمنين أن تخالف أفعالهم أقوالهم ؛ لأن هذه ليست طباع المؤمنين الصادقين ، بل هذا خلق يبغضه الله ويمحقه .

ثم ترسم السورة لوحة جميلة ، وصورة مشرقة يحبها الله للمؤمنين وهم يقاتلون فى سبيل الله لإعلان الدين صفًّا واحدًا كأنهم بنيان مرصوص ، فى اجتماعهم قوتهم ، وفى اتحادهم عزتهم ثم تُسلّى الرسول عمّا يحدث له ، بما قد حدث لرسولين سابقين عليه جاءا إلى بنى إسرائيل وهما : موسى - عليه السلام - فآذوه مع علمهم بأنه رسول الله لكثرة ما جاءهم به من المعجزات فلما أصَروا على الانحراف أمال الله قلوبهم عن الهداية والله لا يهدى القوم الفاسقين .

أما عيسى - عليه السلام - فقد أخبر بنى إسرائيل أنه رسول الله إليهم ، مصدقاً لِما قبله من التوراة ومبشرًا برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ، فلما جاءهم الرسول المُبَشَّر به بالآيات كفروا به وقالوا : هذا سحرٌ مبين ، وتذكر السورة أن بنى إسرائيل لكفرهم وعنادهم وضلالهم

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ) ، وهم فى سعيهم مخفقون وعاجزون ، فهل يستطيع أحد أن يطفىء نور الله بفمه ، هيهات هيهات « وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ »[1] ، كما تذكر أن الله ـ سبحانه ـ هو الذى أرسل محمدا بالقرآن ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، ثم ترشد السورة المؤمنين إلى التجارة الرابحة التى تنجيهم من عذاب أليم ، وهى الإيمان بالله ورسوله والجهاد فى سبيله بالأموال والأنفس ، وربحهم من هذه التجارة ، غفران الذنوب ودخولهم جنات النعيم ، ولهم نعمة أخرى يحبونها ، وهى نصرٌ من الله وفتحٌ قريب ، ثم تدعو السورة المؤمنين أن يكونوا أنصارًا لله كما كان الحواريون مع عيسى أيضًا أنصارًا لله ، وتختم السورة ، بأن الله يؤيد بنصره أولياءه وأصفياءه حتى يصبحوا على عدوهم غالبين منتصرين .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾)

المفردات :

(سَبَّحَ لِلَّهِ) : نزهه عما لا يليق ، ومجده ، ودل عليه .

(الْعَزِيزُ) : الغالب على كل شىء .

(كَبُرَ مَقْتًا) : عظُم بغضا ، وكره كرها شديدا .

(صَفًّا) : صافين أنفسهم ، أو مصفوفين .

(بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) : بنيان متلاصق محكم لا فرجة فيه .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٣٢

التفسير

١ - (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

يخبر الله تعالى أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض من الحيوانات والنباتات وغيرهما يُسبحه - جلَّ وعَلَا - وينزهه عمَّا لا يليق به ويمجده ويُقدسه ويُصلِّى له ويُوحِّده ويدلّ عليه وهو - سبحانه - وحده الغالب على كل شىء الذى خضع له كل شىء وهو ذو الحكمة البالغة يضع الشىء فى موضعه .

٢ - (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ) :

المعنى : يا أيها الذين آمنوا لأى شىء تقولون بألسنتكم ما لا تصدقه أفعالكم ، وما لا تفعلونه من الخير والمعروف ، على أن مدار التوبيخ فى الحقيقة عدم فعلهم ، وإنما وُجِّه إلى قولهم تنبيها على تضاعف معصيتهم .

قال الزمخشرى : هذا الكلام تناول الكذب وإخلاف الوعد ، روى أن المؤمنين قالوا قبل أن يؤمروا بالقتال : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملناه ، ولبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فدلَّهم الله على الجهاد فى سبيله فَوَلَّوْا يوم أحد فعيَّرهم ، وقيل : لما أخبر الله بشهداء بدر قالوا : لئن لقينا قتالًا لنُفْرِغن فيه وُسْعَنا ففروا يوم أُحد ، ولم يَفُوا ، وقيل : كان الرجل يقول : قتلت ولم يقتل ، وطعنت ولم يطعن ، وقيل : كان قد آذى المسلمين رجل فقتله صُهيب وانتحل قتله آخر ، فقال عمر لصُهيب : أخبر الرسول أنك قتلته ، فقال : إنما قتلته لله ولرسوله ، فقال عمر : يا رسول الله قتله صهيب ، قال : ذلك يا أبا يحيى . قال : نعم فنزلت فى المُنْتحِل ، وعن الحسن : نزلت فى المنافقين ، ونداؤهم بالمؤمنين فى الآية الكريمة (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ) تهكم بهم وبإيمانهم .

٣ - (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ) :

المعنى : كره الله كرها شديدا أن تقولوا ما لا تفعلون وأن تخالف أفعالكم أقوالكم .

قال الآلوسى والزمخشرى : قصد فى (كَبُرَ) التعجب وتعظيم الأمر فى قلوب السامعين ؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شىء خارج عن نظائره وأشكاله ، واختير لفظ (المقت) لأنه أشد البغض وأبلغه ، ومنه نكاح المقت لتزوج الرجل امرأة أبيه - ولم يقتصر على أن جعل البغض كبيرا حتى جعله أشده وأقبحه وأفحشه ، وكونه (عِندَ اللهِ) فيه دلالة على أنه أبلغ من ذلك لأنه إذا ثبت كبر مقته عند الله الذى يحقر دونه كل عظيم ، فقد تم كبره وشدته ، وتفسير المقت بما سمعت ذهب إليه كثيرٌ من أهل اللغة .

٤ - (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) :

هذا بيان لِمَا هو مَرْضِىٌّ عنه عنده سبحانه وتعالى بعد بيان ما هو ممقوت لديه جل شأنه والمشار إليه بقوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ...) الآية . وظاهره يرجح أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال دون غيره .

وهذا هو إخبار من الله - تعالى - بمحبته عباده المؤمنين إذا صُفُّوا مُواجهين أعداء الله فى حومة الوغى يقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هى العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثةٌ يضحَكُ اللهُ إليهم : الرجلُ يقومُ من الليل ، والقومُ إذا صُفُّوا للصلاة ، والقوم إذا صُفُّوا للقتال) .

وقوله تعالى - : (كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) أى : كأنهم فى تراصهم والتحام بعضهم ببعض من غير فرجة ولا خلل (بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ) رُصّ وضم بعضه إلى بعض .

والمرصوص على ما قاله الفراء : المعقود بالرصاص ، ويراد به المحكم ، وقال المبرد : رصصت البناء لاءمت بين أجزائه وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة ، ومنه الرصيص وهو انضمام الأسنان ، وقيل : المراد استواء نياتهم فى الثبات حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة وتوحيد الرأى كالبنيان المرصوص ، والأكثرون على الأول .

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾)

المفردات :

(زَاغُوا) : مالوا باختيارهم عن الحق وأصروا على الانحراف عنه .

(أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ) : حرمهم الله التوفيق لاتباع الحق ، وأمال قلوبهم عن قبول الهداية .

(مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) : مصدقا لما تقدمني وجاء قبلي من التوراة .

التفسير

٥ - (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) :

(وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي) هذا كلام مستأنف مقرر لِمَا قبله من شناعة ترك القتال .

والمراد : اذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين عن القتال وقت قول موسى - عليه السلام - لقومه بني إسرائيل حين ندبهم لقتال الجبابرة بقوله : « ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ

اللهُ لَكُمْ » [١] ، فلم يمتثلوا أمره وعصوه أشد عصيان حيث قالوا : « يَامُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا » [٢] ، وقولهم : « فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » [٣] .

وأصروا على ذلك كل الإصرار وآذوه – عليه السلام – كل الإيذاء فوبخهم على ذلك بما حكاه الله عنه بقوله : (يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي) أى : لم تؤذوننى بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به ونهيتكم عنه (وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ) أى : والحال أنكم تعلمون علما قطعياً بمشاهدة ما ظهر على يدىَّ من المعجزات الباهرة التى منها إهلاك عدوكم وإنجاؤكم منه ، تعلمون أنى رسول الله إليكم لأرشدكم إلى خيرى الدنيا والآخرة وكان مقتضى علمكم بذلك أن تبالغوا فى تعظيمى ، وتسارعوا إلى طاعتى ، لا أن تؤذونى وتستهينوا بى ؛ لأن من عرف الله وعظمته عظَّم رسوله ، ولأن من آذى رسول الله كان وعيد الله لاحقا به .

(فَلَمَّا زَاغُوا) أى : فلما أصروا على الزيغ والانحراف عن الحق الذى جاءهم به موسى – عليه السلام – واستمروا على ذلك ، (أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) أى : صرفها عن قبول الحق وعن الميل إلى الصواب لصرف اختيارهم للعمى والضلال (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

تذييل مقرر لمضمون ما قبله – أى : والله لا يهدى القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق المُصرِّين على الغواية .

والمراد بهم إما المذكورون خاصة ، والإظهار فى مقام الإضمار للذّم بالفسق وتعليل عدم الهداية ، أو جنس الفاسقين وهم داخلون فى حكمهم دخولًا أوليًّا .

وذهب بعضهم إلى أن إيذاءهم إياه – عليه السلام – بما كان من انتقاصه وعيبه فى نفسه وما ذكر أولًا هو الذى تقتضيه جزالة اللفظ الكريم لمناسبته لما قبله .

---

(١) سورة المائدة من الآية ٢١

(٢) سورة المائدة من الآية ٢٢

(٣) سورة المائدة من الآية ٢٤

٦ - (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) :

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) : إذ معطوف على إذ الأولى ، والمعنى : واذكر يامحمد حين أن قال عيسى ابن مريم : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) ولعله - عليه السلام - لم يقل : (يَا قَوْمِ) كما قال موسى ، بل قال : (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ) لأنه ليس له النسب المعتاد وهو ما كان من قبل الأب فيهم ، أو إشارة إلى أنه عامل بالتوراة وأنه مثلهم من قوم موسى - عليه السلام - هضما لنفسه بأنه لا أتباع له ولا قوم ، وفيه من الاستعطاف ما فيه ، وقيل : إن التعبير بما ذكر لِمَا فيه من التعظيم لهم فقد كانوا يفتخرون بنسبتهم إلى إسرائيل - عليه السلام - .

(إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) أى : إنى مرسل منه - تعالى - إليكم حال كونى مصدقا لِمَا تقدمنى وجاء قبلى من التوراة ، وذكر هذه الحال : لأنه من أقوى الدواعى إلى تصديقهم إياه - عليه السلام - وقوله - تعالى - : (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) معطوف على مصدقا وهو داع أيضا إلى تصديقه - عليه السلام - من حيث إن البشارة بهذا الرسول واقعة فى التوراة ويتضمن كلامه - عليه السلام - أن دينه التَّصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه وجملة (يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) صفة لرسول الله ﷺ ، وهذا الاسم الجليل (أَحْمَدُ) علم لنبينا ، وصح من رواية مالك والبخارى ومسلم عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لى أسماء ، أنا محمد وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب » .

والعاقب : الذى ليس بعده نبى ، وأحمد منقول من الفعل المضارع للمتكلم ، أو من أفعل التفضيل من الحامدية أو المحمودية ، وبشارة عيسى - عليه السلام - بنبينا مما نطق به القرآن المُعجز فإنكار النصارى له ضرب من الجحود والهذيان .

ذكر الآلوسى أنه ورد فى إنجيل يوحنا ما هو بشارة بذلك عند من أنصف ، وسلك الصراط السوى وما تعسف، ففى الفصل الخامس عشر منه قال يسوع المسيح : (إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى يعلمكم كل شىء) ، وقال يوحنا أيضا : قال المسيح : (من يحبنى يحفظ كلمتى وأبى يحبه وإليه يأتى وعنده يتخذ المنزلة ، كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم ، والفارقليط روح القدس الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شىء ... إلخ) .

(والفارقليط) لفظ يؤذن بالحمد ، وتعين إرادته ﷺ من كلام عيسى - عليه السلام - مما لا غبار عليه لمن كشف الله غشاوة التعصب عن عينيه ، وقد فسره بعض النصارى بالحماد وبعضهم بالحامد فى مدلوله إشارة إلى اسمه - عليه الصلاة والسلام - أحمد : (فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) أى : فلما جاءهم عيسى - عليه السلام - بالمعجزات الظاهرة قالوا مشيرين إلى ما جاء به عيسى ، وقيل : مشيرين إلى ما جاء به أحمد - عليه الصلاة والسلام - (هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ) وتسميته سحرا للمبالغة ويؤيده قراءة طلحة والأعمش : هذا ساحر .

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾)

المفردات :

(وَمَنْ أَظْلَمُ) أى : لا أحد أشد ظلما .

(ٱفْتَرَىٰ) : اختلق بادعاء الشركاء له .

(نُورَ اللهِ) : الحق الذى جاء به الرسول .

(بِالْهُدَىٰ) : بالقرآن .

(دِينِ الْحَقِّ) : الإسلام .

(لِيُظْهِرَهُ) : ليعليه ويرفعه .

(عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) : على جميع الأديان .

التفسير

٧ـ (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ) :

أى : أىُّ النّاس أشد ظلما ممن يُدْعى إلى الإسلام الذى يُوصله إلى سعادة الدارين فتكون استجابته الافتراء والاختلاق على الله بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحرا ، والمراد أنه أظلم من كل ظالم ، والآية فيمن كذب من هذه الأُمة على مايقتضيه السياق ، وهى وإن كانت فى بنى إسرائيل الذين جاءهم عيسى ـ عليه السلام ـ ففيها تأْييد لمن ذهب إلى عدم اختصاص الإسلام بالدين الحق الذى جاء به نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بل الإسلام هو كل دين جاء به الأنبياء والمرسلون (وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أى : لا يوفقهم إلى ما فيه فلاحهم لسوء استعدادهم وعدم توجههم إليه .

٨ـ (يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) :

هذا تمثيل لحالهم ـ وهم يجتهدون فى إبطال الحق ـ بحال من ينفخ الشمس بفيه ليطفئها ؛ تهكمًا وسخرية بهم .

والمعنى : يفترى بنو إسرائيل الكذب على الله لكي يطفئوا نور دينه بأفواههم ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد إطفاء نور الشمس بنفخة من فيه ، والله مكمل الحق ومبلغه غايته بإتمام دينه ، وعن ابن عباس وابن زيد : يريدون إبطال القرآن وتكذيبه بالقول ، وقيل : يريدون إبطال شأن النبي وإخفاء ظهوره بكلامهم وأكاذيبهم ، فقد روى عن ابن عباس : أن الوحى أبطأ أربعين يوما فقال كعب بن الأشرف : يامعشر يهود أبشروا أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره . فحزن الرسول فنزلت : (يُرِيدُونَ ...) الآية .

وقوله – تعالى – : (وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) أى : ولو كره الجاحدون ، وفيه إشارة إلى أنه – عز وجل – متم ذلك قسرا عنهم وإرغاما لهم .

٩ – (هُوَ الَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) :

أى : أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أرسل رسوله محمدا ﷺ بالهدى أى : بالقرآن ، أو المعجزة عامة ، وجعل ذلك نفس الهدى مبالغة ، ودين الحق وهو الملة الحنيفية ودين الإسلام ليظهره على الدين كله أى : ليعليه على جميع الأديان المخالفة له ، ولقد أنجز الله – عزّ وجلّ – وعده ، إذ جعله بحيث لم يبق دين من الأديان إلّا وهو مقهور مغلوب بدين الإسلام ، فقد هزم الأديان الباطلة ونسخ الأديان السماوية السابقة .

وعن مجاهد : إذا نزل عيسى – عليه السلام – لم يكن فى الأرض إلّا دين الإسلام .

وقيل : المراد بالإظهار : الإعلاء بوضوح الأدلة وسطوع البراهين وذلك أمر مستمر أبدا .

(وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) أى : ولو كره المشركون ذلك لِمَا فيه من التوحيد الخالص وإبطال الشرك .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٣)

المفـــردات :

(أَدُلُّكُمْ) : أرشدكم .

(جَنَّاتِ عَدْنٍ) : جنات إقامة .

(وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا) أى : ولكم من النعم نعمة أخرى تحبونها فى الدنيا .

التفســـير

١٠ ـ (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) :

جاء فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ أرادوا أن يسألوا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فأنزل الله هذه السورة ومن جملتها هذه الآية .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا هل أرشدكم إلى تجارة عظيمة الشأن تنجيكم وتخلصكم من عذاب شديد الألم يوم القيامة .

١١ ـ (تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) :

استئناف بيانى كأنه قيل : ما هذه التجارة الجليلة الشأن ؟ دلّنا عليها ، فقيل : « تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ) أى : هذه التجارة هى أن تثبتوا على الإيمان بالله ورسوله وتجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، والمضارع فى الموضعين (تُؤْمِنُونَ ، وَتُجَاهِدُونَ) كما قال المبرد وجماعة : خبر بمعنى الأمر ، أى : آمنوا وجاهدوا ، ويؤيده قراءة عبد الله كذلك ، والتعبير به للإيذان بوجوب الامتثال ، كأن الإيمان والجهاد قد وقعا فأخبر بوقوعهما (ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) أى : ذلكم ما ذكرته وأرشدتكم إليه من الإيمان والجهاد ، خيرٌ لكم على الإطلاق أو من أموالكم وأنفسكم .

(إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) أى : إن كنتم من أهل العلم ، إذ الجهلة لا يعتد بأعمالهم حتى توصف بالخيرية ، وقيل : إن كنتم تعلمون أنه خير لكم كان خيرا لكم حينئذ ، لأنكم إذا علمتم ذلك واعتقدتم أحببتم الإيمان والجهاد فوق ما تحبون أموالكم وأنفسكم وتُخلِصون وتفلحون .

١٢ ـ (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) :

(يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) أى : آمنوا وجاهدوا فى سبيل الله يغفر لكم ذنوبكم ـ فيغفر جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر فى قوله ـ تعالى ـ : (تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ) ويجوز أن يكون التقدير : إن تؤمنوا وتجاهدوا فى سبيل الله يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار (وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً) أى : طاهرة زكية مستلذة ، وهذا إشارة إلى حسنها بذاتها ، وقوله ـ تعالى ـ : (فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ) إشارة إلى حسنها باعتبار محلها (ذَٰلِكَ) أى : الجزاء الذى ذكر من المغفرة وما عطف عليها (الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الذى لا فوز بعده ..

١٣ - (وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) :

أى : ولكم أيها المؤمنون المجاهدون إلى ما ذكر من النعم من المغفرة والرضوان فى الآجلة نعمة أخرى عاجلة تحبونها ثم فسرها بقوله : (نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ) أى : عاجل وهو فتح مكة ، وعطف (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) على (تُؤْمِنُونَ) ؛ لأنه خبر فى معنى الأمر كما قدمنا ، كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبتكم الله وينصركم وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك .

(يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾)

المفـــردات :

(الْحَوَارِيُّونَ) : أصفياء عيسى وخواصه .

(فَأَيَّدْنَا) : فقوينا .

(ظَاهِرِينَ) : غالبين ومنتصرين .

التفســـير

١٤ - (يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ) :

يقول الله تبارك وتعالى آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم كما كان الحواريون أنصار الله حين قال لهم عيسى : من أنصارى إلى الله ؟والحواريون : هم أتباع عيسى وأصفياؤه وأول من آمن به ، قيل : كانوا اثنى عشر رجلًا فرقهم فى البلاد وبعثهم دعاة إلى الناس فى البقاع المختلفة ، واشتقاق الحواريين من الحَوَرِ وهو البياض ؛ لأنه كان مليسهم ، وقيل : لأنهم كانوا قصارين يبيضون الثياب ، وقيل : لنقاء ظاهرهم وباطنهم ، وقيل : الحواريون هم المجاهدون .

وكذلك كان رسول الله ﷺ يقول فى أيام الحج : (مَنْ رجل يؤوينى حتى أبلغَ رسالةَ ربى ؟) حتى قيض الله له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه على أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم بمن معه من أصحابه ، ووفوا له بما عاهدوا الله عليه ، ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار وصار ذلك علما عليهم – رضى الله عنهم – وأرضاهم ، وقوله – تعالى –: (فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ) أى : لما بلَّغَ عيسى – عليه السلام – رسالة ربه إلى قومه وآزر من آزره من الحواريين اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاء به وضلت طائفة ، فخرجت عما جاء به وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم والأباطيل وهم اليهود – عليهم لعنة الله المتتابعة إلى يوم القيامة – ونحلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقا وشيعا ، فمن قائل : إنه ابن الله ، ومن قائل : إنه ثالث ثلاثة – الأب والابن وروح القدس – وقوله – تعالى –: (فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَاهِرِينَ) أى : فنصرنا وقوينا الذين آمنوا بعيسى على عدوهم الذين كفروا به فصاروا بتقويتنا ومساعدتنا غالبين منتصرين . قال زيد بن على : ظاهرين بالحجة والبرهان .

وقيل : المراد (فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ) أى : فآمنت طائفة من بنى إسرائيل بمحمد – عليه الصلاة والسلام – وكفرت به طائفة أخرى ، فأيدنا المؤمنين على الكفرة فصاروا غالبين ، والله أعلم .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٧١ — ١٩٨٩ — ٢٥٠٠٤